٢ - فصل: جواذب الطبع كثيرة

٤ ـ جَوَاذِبُ الطَّبْعِ إِلَىٰ الدُّنيا كَثِيرَةٌ، ثُمَّ هيَ مِنْ دَاخِلٍ، وَذِكْرُ الآخِرَةِ أمرٌ خَارِجٌ عَنِ الطَّبْعِ، ثم هي[1] مِنْ خَارِجٍ. وَرُبَّمَا ظَنَّ مَنْ لَا عِلْمَ لَهُ أَنَّ جَوَاذِبَ الآخِرَةِ أَقْوَىٰ؛ لِمَا يُسْمَعُ مِنَ الْوَعِيدِ فِي القُرْآنِ. وَلَيْسَ كَذٰلِكَ؛ لأنَّ مَثَلَ الطَّبْعِ فِي مَيْلِهِ إلىٰ الدُّنْيَا كَالمَاءِ الجَارِي؛ فَإِنَّهُ يَطْلُبُ الهُبُوطَ، وَإِنَّمَا رَفْعُهُ إِلىٰ فَوْق يَحْتَاجُ إلىٰ التَّكَلُّفِ. وَلِهٰذَا أجابَ مُعَاوِنُ الشَّرْعِ: بالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ يَقْوَىٰ جُنْدُ العَقْلِ. فَأَمَّا الطبعُ؛ فَجَوَاذِبُهُ كَثِيرَةٌ، وَلَيْسَ العَجَبُ أَنْ يَغْلِبَ، إِنَّمَا العَجَبُ أَنْ يُغْلَبَ.

٣ - فصل: من عاين الأمور بعين بصيرته

٥ ـ مَنْ عَايَنَ بِعَيْنِ بَصِيرَتِهِ تَنَاهِيَ الأُمُورِ فِي بِدَايَاتِهَا نَالَ خَيْرَهَا، وَنَجَا مِنْ شَرِّها، وَمَنْ لَمْ يَرَ العَوَاقِبَ؛ غَلَبَ عَلَيْهِ الحِسُّ، فَعَادَ عليهِ بِالْأَلَمِ مَا طَلَبَ مِنْهُ السَّلامَةَ، وَبِالنَّصَبِ[2] مَا رَجَا مِنْهُ الراحةَ.

وَبَيَانُ هٰذَا فِي المُسْتَقْبَلِ يَتَبَيَّنُ بِذِكْرِ المَاضِي، وَهُوَ أَنَّكَ لا تَخْلو أَنْ تَكُونَ عَصَيْتَ اللهَ فِي عُمُرِكَ، أَوْ أَطَعْتَهُ؛ فَأَيْنَ لَذَّةُ مَعْصِيَتِكَ؟! وَأَيْنَ تَعَبُ طَاعَتِكَ؟!

هَيْهَاتَ؛ رَحَلَ كُلٌّ بِمَا فِيهِ، **فَلَيْتَ الذُّنُوبَ إِذَا تَخَلَّتْ خَلَّتْ!**

٦ ـ وَأَزِيدُكَ فِي هٰذَا بيانًا: مَثِّلْ سَاعَةَ المَوْتِ، وَانْظُرْ إِلىٰ مَرَارَةِ الحَسَرَاتِ عَلَىٰ التَّفْرِيطِ، وَلا أَقُولُ: كيفَ تَغْلِبُ حلاوةَ اللَّذَّاتِ؟! لأنَّ حَلاوةَ اللَّذَّاتِ استحالَتْ حَنْظَلًا[3]، فبقيتْ مَرَارةُ الأسىٰ بِلَا مُقَاوِمٍ، أَتُراكَ ما عَلِمْتَ أنَّ الأمْرَ بعواقِبِهِ؟! فَرَاقِبِ العَوَاقِبَ تَسْلَمْ، وَلا تَمِلْ مع هَوَىٰ الحِسِّ فَتَنْدَمْ.

---

(١) في حاشية الأصل: كذا في النسختين، ولعله، ثم هو.

(٢) **النصب**: التعب.

(٣) **الحنظل**: نبات بري من فصيلة القرع ثمرته في حجم البرتقالة ولونها، فيه لب شديد المرارة.

٤ - فصل: التفكر في عواقب الدنيا

٧ ـ مَنْ تَفَكَّرَ في عَوَاقِبِ الدُّنيا؛ أَخَذَ الحَذَرَ، وَمَنْ أَيْقَنَ بِطُولِ الطَّرِيقِ؛ تَأَهَّبَ للسَّفَرِ.

٨ ـ مَا أعْجَبَ أَمْرَكَ يا مَنْ يُوقِنُ بِأَمْرٍ ثُمَّ يَنْسَاهُ، وَيَتَحَقَّقُ ضَرَرَ حَالٍ ثُمَّ يَغْشَاهُ، وَتَخْشَىٰ الناسَ، واللهُ أحقُّ أَنْ تَخْشَاهُ!

٩ ـ تَغْلِبُكَ نَفْسُكَ عَلَىٰ مَا تَظُنُّ، وَلا تَغْلِبُها عَلَىٰ مَا تَسْتَيْقِنُ!

١٠ ـ أَعْجَبُ العَجَائِبِ: سُرُوْرُكَ بِغُرُورِكَ، وَسَهْوُكَ فِي لَهْوِكَ عَمَّا قَدْ خُبِّئَ لَكَ!

١١ ـ تَغْتَرُّ بِصِحَّتِكَ، وَتَنْسَىٰ دُنُوَّ السَّقَمِ، وَتَفْرَحُ بِعَافِيَتِكَ غَافلًا عَنْ قُرْبِ الأَلَمِ!

١٢ ـ لَقَدْ أراكَ مَصْرَعُ غَيْرِكَ مَصْرَعَكَ، وَأَبْدَىٰ مَضْجَعُ سِوَاكَ قَبْلَ المَمَاتِ مَضْجَعَكَ، وَقَدْ شَغَلَكَ نَيْلُ لَذَّاتِكَ عَنْ ذِكْرِ خَرَابِ ذَاتِكَ.

كَأَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ بِأَخْبَارِ مَنْ مَضَىٰ ... وَلَمْ تَرَ فِي البَاقِينَ ما يَصْنَعُ الدَّهْرُ

فَإِنْ كُنْتَ لا تَدْرِي فَتِلْكَ دِيارُهُم ... مَحَاهَا مَجَالُ الرِّيْحِ بَعْدَهُمْ والقَبْرُ

١٣ ـ كَمْ رَأَيْتُ صَاحِبَ مَنْزِلٍ مَا نَزَلَ لَحْدَهُ حَتَّىٰ نَزَلَ[1]! وَكَمْ شاهَدْتُ والِيَ قَصرٍ وَلِيَه عَدُوُّهُ لَمَّا عُزِلَ!

١٤ ـ فَيَا مَنْ كُلُّ لَحْظَةٍ إِلَىٰ هٰذَا يَسْرِي، وَفِعْلُهُ فِعْلُ مَنْ لَا يَفْهَمُ وَلَا يَدْرِي!

وَكَيْفَ تَنَامُ العَيْنُ وَهِيَ قَرِيرَةٌ ... وَلَمْ تَدْرِ مِنْ أَيِّ المَحَلَّيْنِ تَنْزِلُ؟

٥ - فصل: مقاربة الفتنة

١٥ ـ مَنْ قارَبَ الفتنةَ؛ بَعُدتْ عنه السَّلامةُ، وَمَنِ ادَّعىٰ الصَّبْرَ؛ وُكِلَ إلىٰ نَفْسِهِ.

١٦ ـ وَرُبَّ نظرةٍ لم تُناظِرْ[2]، وأحقُّ الأشياءِ بالضَّبْطِ والقَهْرِ: اللسانُ والعينُ.

١٧ ـ فإيّاكَ إيّاكَ أن تغترَّ بعَزْمِكَ عَلىٰ تَرْكِ الهَوَىٰ؛ مع مقاربةِ الفِتْنَةِ؛ فإنَّ

---

(١) **نزل**: تخلى عن أهله وماله وجاهه.

(٢) **لم تناظر**: لم تمهل.

الهَوَىٰ مُكايِدٌ[1]! وكم من شُجَاعٍ في صَفِّ الحَرْبِ اغْتِيلَ، فأتاهُ ما لَمْ يَحْتَسِبْ ممَّنْ يأنَفُ[2] النَظَرَ إليه، واذكرْ حَمْزَةَ مع وَحْشِيٍّ[3].

فَتَبَصَّرْ ولا تَشِمْ كُلَّ بَرْقٍ ... رُبَّ بَرْقٍ فِيهِ صَوَاعِقُ حَيْنِ[4]

وَاغْضُضِ الطَّرْفَ تَسْتَرِحْ مِنْ غَرَامٍ ... تَكْتَسِي فِيهِ ثَوْبَ ذُلٍّ وَشَيْنِ[5]

فَبَلاءُ الفَتَىٰ مُوافَقَةُ النَّفْـ ... ـسِ، وَبَدْءُ الهَوَىٰ طُموحُ العَيْنِ

٦ - فصل: أعظم المعاقبة

١٨ - أَعْظَمُ المعاقبةِ أنْ لا يُحِسَّ المعاقَبُ بالعقوبةِ، وأشدُّ مِنْ ذٰلكَ أَنْ يَقَعَ السرورُ بِمَا هُوَ عقوبةٌ؛ كالفرحِ بالمالِ الحَرَامِ، والتَمَكُّنِ مِنَ الذّنوبِ، وَمَنْ هٰذهِ حَالُه لا يَفُوزُ بِطَاعَةٍ.

١٩ - وإنِّي **تَدَبَّرْتُ** أَحْوَالَ أكثرِ العُلَمَاءِ والمُتَزَهِّدِينَ، فَرَأَيْتُهُم فِي عُقوباتٍ لا يُحِسُّونَ بِهَا، وَمُعْظَمُها مِنْ قِبَلِ طَلَبِهِمْ للرِّئاسةِ؛ فالعالِمُ منهم يَغْضَبُ إِنْ رُدَّ عَليهِ خطؤُه، والواعِظُ مُتَصَنِّعٌ بِوَعْظِهِ، والمُتَزَهِّدُ مُنَافِقٌ أو مُراءٍ.

فَأَوّلُ عقوباتِهِم: إعراضُهُمْ عَنِ الحَقِّ شُغْلًا بالخَلْقِ، ومن خَفِيِّ عقوباتهم: سَلْبُ حلاوةِ المناجاةِ؛ ولَذَّةِ التعبُّدِ. ألَّا رجالٌ مؤمنونَ، ونساءٌ مؤمناتٌ، يَحْفَظُ اللهُ بِهِمُ الأرضَ؛ بَوَاطِنُهُمْ كَظَوَاهِرِهِمْ، بل أَجْلَىٰ، وَسَرَائِرُهم كَعَلانِيَتِهِمْ، بَلْ أَحْلَىٰ، وَهِمَمُهُمْ عند الثُّرَيَّا[6]، بل أَعْلَىٰ، إِنْ عُرِفُوا تَنَكَّرُوا، وَإِنْ رُئِيَتْ لهم كَرَامَةٌ أَنْكَرُوا؛ فالنَّاسُ في غَفَلاتِهِمْ، وَهُمْ في قَطْعِ فَلاتِهِم[7]، تُحِبُّهم بِقاعُ الأَرْضِ، وَتَفْرَحُ بهم

---

(١) **مُكايد**: خدّاع ماكر.
(٢) **يأنف من النظر إليه**: يترفع عنه ويكرهه.
(٣) في حاشية الأصل: إشارة إلى مقتل حمزة عم النبي ﷺ بيد وحشي. قلت: هو وحشي بن حرب، مولى بني نوفل، أسلم وأقام بحمص، وتوفي فيها سنة (٢٥هـ).
(٤) **لا تشم**: لا تنخدع. و(الحين) الهلاك.
(٥) **الشين**: العيب، والأبيات لابن الحريري، ذم الهوى ص(١٠٣).
(٦) **الثريا**: مجموعة من النجوم.
(٧) **الفلاة**: الأرض الجرداء، والمعنى: أن هؤلاء الرجال في سفر إلى الجنة، ولا يجعلون من الدنيا وزينتها شاغلًا لهم عن ذلك.

أملاك السماءِ، نسألُ اللهَ ﷻ التوفيقَ لاتِّباعهم، وأنْ يجعلَنا مِن أتباعِهِمْ.

٧ - فصل: علوُّ الهمةِ

٢٠ - من علامةِ كَمَالِ العَقْلِ عُلوُّ الهِمَّةِ، والراضِي بالدُّوْنِ[١] دنيٌّ[٢].

وَلَـمْ أَرَ فِـي عُـيـوبِ الـنَّـاسِ عَـيْـبًـا كَـنَـقْـصِ الـقَـادِرِيـنَ عـلـىٰ الـتَّـمـامِ[٣]

٨ - فصل: سبقت محبة الله لأحبابه

٢١ - سُبْحَانَ مَنْ سَبَقَتْ مَحَبَّتُهُ لِأَحْبَابِهِ، فَمَدَحَهُمْ علَىٰ مَا وَهَبَ لَهُمْ، وَاشْتَرَىٰ مِنْهُمْ مَا أَعْطَاهُمْ[٤]، وَقَدَّمَ المُتَأَخِّرَ مِنْ أَوْصَافِهِمْ لِمَوْضِعِ إيثارِهِمْ؛ فَبَاهَىٰ بِهِمْ فِي صَوْمِهِمْ[٥]، وَأَحَبَّ خُلُوفَ أَفْوَاهِهِمْ[٦].

يَا لَهَا مِنْ حَالةٍ مَصُونَةٍ! لا يَقْدِرُ عَلَيْهَا كُلُّ طَالِبٍ، ولا يَبْلُغُ كُنْهَ[٧] وَصْفِهَا كُلُّ خَاطِبٍ.

٩ - فصل: العاقل يعطي كل لحظة حقها

٢٢ - الواجِبُ عَلَىٰ العَاقِلِ أَخْذُ العُدَّةِ لِرَحِيلِهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَعْلَمُ مَتَىٰ يَفْجَؤُه أمرُ رَبِّهِ؟ ولا يَدْرِي مَتَىٰ يُسْتَدْعَىٰ؟

وإنِّي رَأَيْتُ خَلْقًا كثيرًا غَرَّهُمُ الشَّبابُ، ونَسُوا فَقْدَ الأَقْرَانِ، وَأَلْهَاهُمْ طُوْلُ

---

(١) **الدون**: الأمر الخسيس الحقير.

(٢) **الدنيء**: سافل الطبع.

(٣) البيت للمتنبي، ديوانه (٤٧٦).

(٤) قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم ...﴾ الآية [التوبة: ١١١].

(٥) عن عبادة بن الصامت ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال يومًا ومضى رمضان، وفيه: «وينظر الله إلى تنافسكم فيه، ويباهي بكم ملائكته» الحديث رواه الطبراني، قال المنذري في الترغيب (١٤٦٧): رواته ثقات إلا أن محمد بن قيس لا يحضرني فيه جرح ولا تعديل.

(٦) عن أبي هريرة ﷺ: أنّ رسول الله ﷺ قال: «الصيام جُنّة..» وفيه: «لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك...» الحديث رواه البخاري (١٨٩٤) ومسلم (١١٥١).

(٧) **كنه**: حقيقة.

الأَمَلِ، وَرُبَّمَا قَالَ العَالِمُ المَحْضُ[1] لِنَفْسِهِ: أَشْتَغِلُ بِالْعِلْمِ اليَوْمَ، ثُمَّ أَعْمَلُ بِهِ غَدًا! فَيَتَسَاهَلُ فِي الزهد[2]، بِحُجَّةِ الرَّاحَةِ، وَيُؤَخِّرُ الرجاءَ[3] لِتَحْقِيقِ التَوْبَةِ، ولا يَتَحَاشَىٰ مِنْ غَيْبَةٍ أَوْ سَمَاعِهَا، وَمِنْ كَسْبِ شُبْهَةٍ يَأْمَلُ أَنْ يَمْحُوَهَا بِالْوَرَعِ، وَيَنْسَىٰ أَنَّ المَوْتَ قَدْ يَبْغَتُ.

فَالعَاقِلُ مَن أَعْطَىٰ كُلَّ لَحظةٍ حقَّها من الواجِبِ عليه؛ فإنْ بَغَتَهُ الموتُ؛ رُئي مُسْتَعِدًا، وإن نالَ الأَملَ؛ ازدادَ خَيْرًا.

١٠ - فصل: متى رأيت معاقبًا فاعلم أنه لذنوبٍ

٢٣ - **خَطَرَتْ** لي فِكْرةٌ فيما يَجْرِي علىٰ كثيرٍ مِن العَالَمِ مِن المَصَائِبِ الشَدِيدَةِ والبلايا العَظِيمَةِ، التي تَتَنَاهَىٰ إلىٰ نهايةِ الصعوبةِ، فقلتُ: سُبْحَانَ اللهِ! إِنَّ اللهَ أَكْرَمُ الأَكْرَمِينَ، والكَرَمُ يُوجِبُ المُسَامَحَةَ؛ فَمَا وَجْهُ هٰذِهِ المُعَاقَبَةِ؟!

فتفكَّرْتُ فرأيتُ كثيرًا مِنَ النَّاسِ في وُجُودِهِم كالعَدَم، لا يَتَصَفَّحُونَ أدلَّةَ الوَحْدَانِيَّةِ، ولا يَنْظُرُونَ في أَوَامِرِ اللهِ تعالىٰ وَنَوَاهِيهِ، بل يَجْرُونَ علىٰ عاداتِهِمْ كالبَهَائِمِ؛ فإِنْ وَافَقَ الشَّرْعُ مُرَادَهُمْ [فبها][4]، وإلَّا؛ فَمُعَوَّلُهُمْ علىٰ أَغْرَاضِهِم! وَبَعْدَ حُصُولِ الدِّينارِ لا يُبَالونَ؛ أمِنْ حلالٍ كَانَ أَمْ مِنْ حَرَامٍ؟ وإنْ سَهُلتْ عليهم الصلاةُ؛ فَعَلُوهَا، وإنْ لَمْ تَسْهُل؛ تَرَكُوْهَا! وفيهم مَنْ يبارِزُ بالذنوبِ العظيمةِ؛ مع نوعِ معرفةِ المناهي.

وربَّما قَوِيَتْ معرفةُ عالِمٍ منهم، وتفاقَمَتْ ذنوبُهُ!!

فَعَلِمْتُ أنَّ العقوباتِ ـ وإنْ عَظُمَتْ ـ دونَ إِجْرَامِهِمْ. فَإِذَا وَقَعَتْ عُقُوبَةٌ لِتُمَحِّصَ ذَنبًا؛ صَاحَ مُسْتَغِيْثُهُمْ: تُرَىٰ هٰذا بأيِّ ذنبٍ؟! وَيَنْسَىٰ ما قَدْ كَانَ ممّا تَتَزَلْزَلُ الأرضُ لِبَعْضِهِ!

---

(١) **العالم المحض**: العالم الذي لا يعمل بعلمه، قال الشيخ أحمد بن رسلان الشافعي في كتاب (الزبد) ص(٤):

فَعَالِمٌ بِعِلْمِهِ لَمْ يَعْمَلَنْ ... مُعَذَّبٌ مِنْ قَبْلِ عُبَّادِ الوَثَنْ

(٢) في حاشية الأصل: في الأحمدية: في الزلل. ولكل وجهٌ صحيح.

(٣) في بعض النسخ المطبوعة: الأهبة.

(٤) زيادة من المحقق.

٢٤ - وَقَدْ يُهَانُ الشيخُ في كِبَرِهِ حَتّىٰ تَرْحَمَهُ القُلُوبُ، وَلَا يَدْرِي أنَّ ذٰلِكَ لإِهمالِهِ حقَّ اللهِ تعالىٰ في شَبَابِهِ! فمتىٰ رأيت مُعاقَبًا؛ فاعلم أنه لذنوبٍ.

١١ - فصل: الحسد منشؤه حب الدنيا

٢٥ - **تَأَمَّلْتُ** التَّحَاسُدَ بينَ العُلَمَاءِ، فَرَأَيْتُ مَنْشَأَهُ مِنْ **حُبِّ الدنيا**؛ فَإنَّ عُلَمَاءَ الآخِرَةِ يتوادُّونَ، ولا يَتَحَاسَدُونَ: كَمَا قال ﷻ: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ [الحشر: ٩]. وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الحشر: ١٠].

وقد كان أبو الدرداءِ[١] يدعو كُلَّ ليلةٍ لجَمَاعةٍ من إخوانِهِ.

وقال الإمامُ أحمدُ بنُ حنبل لولدِ الشافعيِّ: أبوكَ مِنَ السِّتَّةِ الذينَ أَدْعُو لَهُمْ كُلَّ لَيْلَةٍ وقتَ السَّحَر.

٢٦ - والأمرُ الفارِقُ بينَ الفئتينِ: أنَّ **علماءَ الدُّنيا** ينظُرونَ إلىٰ الرِّئاسَةِ فيها، وَيُحِبُّونَ كَثْرَةَ الجَمْعِ والثَّناءِ، **وعلماءُ الآخرةِ** بِمَعْزِلٍ من إيثارِ ذٰلكَ، وقد كانوا يَتَخَوَّفونَه، ويَرْحَمونَ مَنْ بُلِيَ به.

وكان النَخَعيُّ[٢] لا يستنِدُ إلىٰ ساريةٍ.

وقال عَلْقَمَةُ[٣]: أَكْرَهُ أنْ يُوْطَأَ عَقِبِي، وَيُقَالُ: علقمةُ. وكانَ بَعْضُهم إذَا جَلَسَ إليه أَكْثَرُ مِن أربعةٍ؛ قَامَ عَنْهُمْ. وَكَانوا يَتَدَافَعُونَ الفتوىٰ[٤]، وَيُحِبُّونَ الخُمُولَ[٥].

٢٧ - مَثَلُ القومِ كَمَثَلِ راكبِ البَحْرِ، وقد خبَّ[٦]؛ فعندَهُ شُغُلٌ إلىٰ أن يُوقِنَ

---

(١) عويمر بن مالك بن قيس الأنصاري الخزرجي، صحابي من الحكماء الفرسان القضاة العباد توفي بدمشق سنة (٣٢هـ).

(٢) إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود، أبو عمران (٤٦ ـ ٩٦هـ) من مذحج من أكابر التابعين صلاحًا وصدق رواية وحفظًا للحديث، من أهل الكوفة، مات متخفيًا من الحجاج.

(٣) علقمة بن قيس النخعي الكوفي، أبو شبل، عداده في المخضرمين، ولازم عبد الله بن مسعود، شهد صفين وغزا خراسان، توفي سنة (٦٢هـ).

(٤) أي: يحيل كل واحد منهم الفتوى إلى من يرى أنه أعلم منه.

(٥) **الخمول**: التواضع والبعد عن الشهرة.

(٦) **خب البحر**: هاج وماج.

بالنَّجَاةِ، وإنَّما كانَ بعضُهم يَدْعُو لبعضٍ، ويَسْتَفِيدُ مِنْهُ؛ لأنَّهم رَكْبٌ تصاحَبوا فَتَوادُّوا، فالأيّامُ والليالي مَرَاحِلُهُمْ إلىٰ سَفَرِ الجَنَّةِ.

١٢ - فصل: من أحب تصفية الأحوال

٢٨ ـ مَنْ أَحَبَّ تَصْفِيةَ الأحوال[١]؛ فَلْيَجْتَهِدْ فِي تَصْفِيَةِ الْأَعْمَالِ، قال اللهُ ﷻ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٩].

وقال النبيُّ ﷺ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ ﷻ: **«لَوْ أَنَّ عِبَادِي أَطَاعُونِي؛ لَسَقَيْتُهُمُ المَطَرَ بِاللَّيْلِ، وَأَطْلَعْتُ عَلَيْهِمُ الشَّمْسَ بِالنَّهَارِ، وَلَمْ أُسْمِعْهُمْ صَوْتَ الرَّعْدِ»**[٢].

وَقَالَ ﷺ: **«البِرُّ لا يَبْلَىٰ، والإِثْمُ لا يُنْسَىٰ، والدَّيَّانُ لا يَنَامُ، وَكَمَا تَدِينُ تُدان»**[٣].

وقالَ أبو سُلَيمانِ الدَّارَانِي[٤]: مَن صَفَّىٰ؛ صُفِّيَ له، وَمَنْ كَدَّرَ؛ كُدِّرَ عَلَيْهِ، وَمَنْ أحسنَ في لَيْلِهِ؛ كُوفِئَ في نَهَارِهِ، وَمَنْ أَحْسَنَ فِي نَهَارِهِ، كُوفِئَ في لَيْلِهِ.

وكانَ شَيْخٌ يَدُورُ فِي المَجَالِسِ وَيَقُولُ: مَنْ سَرَّهُ أَنْ تَدُومَ لَهُ العَافِيَةُ؛ فَلْيَتَّقِ اللهَ ﷻ.

وكان **الفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ**[٥] يقولُ: إنِّي لَأَعْصِي اللهَ، فَأَعْرِفُ ذٰلِكَ في خُلُقِ دابَّتِي وَجَارِيَتِي.

٢٩ ـ واعْلَمْ ـ وَفَّقَكَ اللهُ ـ أنَّه لا يُحِسُّ بِضَرْبَةٍ مُبَنَّجٌ[٦]، وإنَّما يَعْرِفُ الزيادةَ مِنَ النُّقصانِ المُحَاسِبُ لِنَفْسِهِ.

---

(١) **الأحوال**: أحوال النفس.

(٢) رواه أحمد (٢/ ٣٥٩) والحاكم (٤/ ٢٥٦) وفي سنده صدقة بن موسى، قال الذهبي: ضعّفوه (ضعيف).

(٣) رواه عبد الرزاق (٢٠٢٦٢) مرسلًا عن أبي قلابة، وأحمد في الزهد ص(١٠٠) وابن أبي شيبة (٣٤٥٦٩) موقوفًا على أبي الدرداء (ضعيف).

(٤) عبد الرحمٰن بن أحمد بن عطية العنسي المذحجي، زاهد مشهور، من أهل داريا بغوطة دمشق، وتوفي ببلده سنة (٢١٥هـ).

(٥) أبو علي التميمي الخراساني (١٠٥ ـ ١٨٧هـ) الإمام العابد الزاهد، شيخ الحرم المكي.

(٦) **مبنّج**: خدّر بالبنج، وهو نبات مخدِّر من الفصيلة الباذنجانية.

٣٠ ـ وَمَتَىٰ رأيتَ تَكْدِيرًا في حَالٍ؛ فَاذْكُرْ نِعْمَةً مَا شُكِرَتْ، أَوْ زَلَّةً قد فُعِلَتْ.

٣١ ـ وَاحْذَرْ مِنْ نِفَارِ النِّعَمِ، وَمُفَاجَأَةِ النِّقَمِ، ولا تَغْتَرِرْ بِسَعَةِ بِسَاطِ الحِلْمِ؛ فَرُبَّما عُجِّلَ انقباضُه، وقد قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وكانَ أبو عَلِيٍّ الرُّوذْبَارِيُّ[١] يَقُولُ: مِنَ الاغْتِرَارِ أَنْ تُسِيءَ، فَيُحْسِنَ إِلَيْكَ، فَتَتْرُكَ التَّوْبَةَ توهُّمًا أنّكَ تُسَامَحُ في الهَفَوَاتِ.

١٣ - فصل: التكليف أقسام

٣٢ ـ **تَفَكَّرْتُ** يومًا في التَّكْلِيفِ، فرأيتُهُ يَنْقَسِمُ إلىٰ سَهْلٍ وَصَعْبٍ:

فأمَّا **السَّهْلُ**: فَهُوَ أعمالُ الجَوَارِحِ؛ إلَّا أنّ مِنْهُ ما هُوَ أصْعَبُ من بَعْضٍ؛ فالوُضُوءُ والصَّلاةُ أسْهَلُ من الصَّوْمِ، والصَّوْمُ رُبَّما كَانَ عِنْدَ قومٍ أسْهَلُ مِنَ الزَّكَاةِ.

وأما **الصعب**؛ فَيَتَفَاوَتُ؛ فَبَعْضُها أَصْعَبُ من بعضٍ:

فمن المُسْتَصْعَبِ: النظرُ والاستدْلالُ المُوصِلَانِ إلىٰ مَعْرِفَةِ الخَالِقِ؛ فهٰذَا صَعْبٌ عِنْدَ مَن غَلَبَتْ عليهِ أمورُ الحِسِّ، سَهْلٌ عِنْدَ أهلِ العَقْلِ.

ومن المُسْتَصْعَبِ: غَلَبَةُ الهَوَىٰ، وَقَهْرُ النُّفُوسِ، وَكَفُّ أَكُفِّ الطِّباعِ عن التَّصَرُّفِ فِيمَا يُؤْثِرُهُ، وَكُلُّ هٰذا يَسْهُلُ علىٰ العَاقِلِ النَّظْرُ في ثَوَابِهِ، وَرَجَاءُ عَاقِبَتِهِ، وإنْ شَقَّ عَاجِلًا.

٣٣ ـ وإنَّمَا **أَصْعَبُ التَّكَالِيفِ وَأَعْجَبُهَا**: أنّه قَدْ ثَبَتَتْ حِكْمَةُ الخَالِقِ عِنْدَ العَقْلِ ثُمَّ يراه[٢] يُفْقِرُ المُتَشَاغِلَ بِالْعِلْمِ، المُقْبِلَ عَلَىٰ العِبَادَةِ، حَتّىٰ يَعَضَّهُ الفَقْرُ بِنَاجِذَيْهِ[٣]، فَيَذِلَّ لِلْجَاهِلِ في طَلَبِ القُوتِ، وَيُغْنِي الفاسِقَ مَع الجَهْلِ حتّىٰ تَفِيضَ الدُّنيا عَلَيْهِ[٤].

---

(١) محمد بن أحمد بن القاسم، من كبار الصوفية، من أولاد الرؤساء والوزراء أصله من بغداد، سكن مصر، توفي سنة (٣٢٢هـ).

(٢) أي: يرى العقلُ الخالقَ.

(٣) **النواجذ**: هي أربعة أضراس بعد الأرحاء، ويسمّى ضرس الحُلم، لأنه ينبت بعد البلوغ وكمال العقل. وتسميه العامة: أضراس العقل.

(٤) العقل والعلم والإقبال على العبادة من النعم التي لا يعدلها مال، فهل يستوي هذا مع الجهل =

ثُمَّ نَرَاهُ يُنْشِئُ الأَجْسَامَ وَيُحْكِمُهَا، ثُمَّ يَنْقُضُ بِنَاءَ الشَّبَابِ فِي مَبْدَءِ أَمْرِهِ، وَعِنْدَ اسْتِكْمَالِ بِنَائِهِ؛ فَإِذَا بِهِ قَدْ عَادَ هَشِيمًا.

ثُمَّ نَرَاهُ يُؤْلِمُ الأَطْفَالَ، حَتّىٰ يَرْحَمَهُمْ كلُّ طَبْعٍ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: إيّاكَ أنْ تَشُكَّ فِي أَنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.

ثُمَّ يَسْمَعُ بِإِرْسَالِ مُوْسَىٰ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ، ويُقَالُ لَهُ: اعتقدْ أنَّ اللهَ تَعَالىٰ أَضَلَّ فِرْعَوْنَ، واعْلَمْ أنَّه مَا كَانَ لآدَمَ بُدٌّ مِنْ أَكْلِ الشَّجَرَةِ؛ وَقَدْ وُبِّخَ بقولِهِ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ [طه: ١٢١].

وفي مِثْلِ هٰذِهِ الأشياءِ تَحَيَّرَ خَلْقٌ، حَتَّىٰ خَرَجُوا إلىٰ الكُفْرِ والتَّكْذِيبِ، ولو فتَّشوا علىٰ سِرِّ هٰذِهِ الأشياءَ؛ **لَعَلِمُوا أنَّ تَسْلِيمَ هٰذِهِ الأُمُورِ تَكْلِيفُ العَقْلِ لِيُذْعِنَ.**

هٰذا أَصلٌ؛ إذا فُهِمَ؛ حَصَلَ مِنْهُ السلامةُ والتَّسْلِيمُ، نَسْأَلُ اللهَ ﷻ أنْ يَكْشِفَ لنا الغَوَامِضَ، الَّتِي حَيَّرَتْ مَنْ ضَلَّ؛ إنَّهُ قَرِيبٌ مجيبٌ.

١٤ - فصل: لا تُضيّعْ لحظة في غير قربةٍ

٣٤ ـ يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَعْرِفَ شَرَفَ زَمَانِه، وَقَدْرَ وَقْتِهِ؛ فَلا يُضَيِّعَ مِنْهُ لحظةً فِي غَيْرِ قُرْبَةٍ، وَيُقَدِّمَ الأَفْضَلَ فَالأَفْضَلَ مِنَ القَوْلِ وَالْعَمَلِ.

٣٥ ـ وَلْتَكُنْ نِيَّتُهُ فِي الخَيْرِ قَائمةً مِنْ غَيْرِ فُتورٍ بِمَا لا يَعْجِزُ عَنْهُ البَدَنُ مِنَ العَمَلِ؛ كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ: «**نِيَّةُ المُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ**»(١).

٣٦ ـ وَقَدْ كَانَ جَمَاعةٌ مِنَ السَّلَفِ يُبَادِرُوْنَ اللَّحَظَاتِ(٢)، فنُقِلَ عَنْ **عَامِرِ بْنِ**

= والغفلة، ولو أوتي الجاهل كنوز قارون؟! قال سفيان بن عيينة: من زيد في عقله نقص من رزقه، قلت: لأن العقل من الرزق كما قال علي بن أبي طالب ﷺ.

(١) رواه الطبراني (٦/ ٢٢٨) وأبو نُعيم في الحلية (٣/ ٢٥٥) والخطيب في تاريخه (٩/ ٢٣٧) عن سهل بن سعد، وابن عبد البر في التمهيد (١٢/ ٢٦٥) عن علي، والقضاعي (١٤٧، ١٤٨) عن أنس والنواس (ضعيف).

(٢) **يبادرون اللحظات**: يسارعون إلى الاستفادة منها في الطاعات.

عَبْدِ قَيْسٍ[1]: أنَّ رَجُلًا قالَ لَهُ: كلِّمْني! فَقَالَ لَهُ: أَمْسِكِ الشَّمْسَ[2]!

وقالَ **ابنُ ثابتٍ البُنانيِّ**[3]: ذَهَبْتُ أُلقِّنُ أَبِي، فَقَالَ: يَا بُنَيَّ! دَعْنِي؛ فإنِّي فِي وِرْدِي السَّادِسِ.

وَدَخَلُوا عَلَىٰ بَعْضِ السَّلَفِ عِنْدَ مَوْتِهِ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقِيلَ لَهُ، فَقَالَ: الآنَ تُطْوَىٰ صَحِيفَتِي.

٣٧ ـ فَإِذَا عَلِمَ الإِنْسَانُ ـ وإنْ بَالَغَ في الجِدِّ ـ بأنَّ المَوْتَ يَقْطَعُهُ عَنِ العَمَلِ؛ عَمِلَ في حَيَاتِهِ مَا يَدُومُ لَهُ أجرُه بعدَ مَوْتِهِ: فَإِنْ كانَ لَهُ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيا؛ وَقَفَ وَقْفًا، وَغَرَسَ غَرْسًا، وَأَجْرَىٰ نَهَرًا، وَيَسْعَىٰ في تَحْصِيلِ ذُرِّيَّةٍ تَذْكُرُ اللهَ بَعْدَهُ، فَيكونُ الأَجْرُ لَهُ، أَوْ أَنْ يُصَنِّفَ كِتابًا فِي العِلْمِ، **فَإِنَّ تَصْنِيفَ العَالِمِ وَلَدُهُ المُخَلَّدُ**، وأنْ يكونَ عامِلًا بالخيرِ، عالِمًا فِيهِ، فَيُنْقَلَ مِنْ فِعْلِهِ مَا يَقْتَدِي الغَيْرُ بِهِ؛ فذٰلِكَ الذي لَمْ يَمُتْ.

..... **قَدْ مَاتَ قَوْمٌ وَهُمْ فِي النَّاسِ أحياءُ**[4]

١٥ - فصل: حِيَلُ الشيطان ومكرُه

٣٨ ـ رَأَيْتُ مِن أعظمِ حِيَلِ الشيطانِ ومَكْرِهِ أنْ يُحِيطَ[5] أربابَ الأموالِ بالآمالِ، والتَّشاغلِ باللَّذَّاتِ القاطعةِ عن الآخرةِ وأعمالِها! فإذَا [شَغَلَهُم][6] بِالْمَالِ تَحْرِيضًا عَلَىٰ جَمْعِهِ، وَحَثًّا عَلَىٰ تَحْصِيلِهِ؛ أَمَرَهُمْ بِحِرَاسَتِهِ بُخلًا بِهِ؛ فذٰلِكَ مِنْ مَتِينِ حِيَلِهِ، وَقَوِيِّ مَكْرِهِ.

٣٩ ـ ثُمَّ دَفَنَ فِي هٰذا الأمرِ مِنْ دقائقِ الحيلِ الخفيَّةِ أنْ خَوَّفَ مِنْ جمعِهِ المؤمنينَ؛ فَنَفَّرَ طالِبَ الآخرةِ مِنْهُ، وبادَرَ التائبَ يُخْرِجُ ما في يَدِهِ.

---

(١) **أبو عبد الله العنبري البصري**، من كبار العباد الزهاد، توفي في حدود سنة (٥٥هـ).

(٢) يعني: من يرد لي وقتي الذي تضيعه.

(٣) ثابت بن أسلم البناني (٤١ ـ ١٢٧هـ) من أئمة العلم والعمل.

(٤) قريب منه قول الطغرائي:

فـفـز بـعـلـمٍ تَـعِـشْ حـيًّـا بـهِ أبـدًا ... الـنـاسُ مـوتـى، وأهـلُ الـعـلـمِ أحـيـاءُ

(٥) في الأصل: يحبط، وليس بشيءٍ.

(٦) في الأصل: (أهلهم) وما أثبته من ط.

وَلَا يَزَالُ الشَّيْطَانُ يُحَرِّضُهُ عَلَىٰ الزُّهْدِ، ويأمُرُه بالتَّرْكِ، ويُخَوِّفُه مِنْ طُرُقَاتِ الكَسْبِ؛ إظهارًا لنُصْحِهِ، وحفظِ دينِهِ، وفي خفايا ذٰلك عَجَائِبُ من مَكْرِهِ!

٤٠ ـ وَرُبَّما تَكَلَّمَ الشَّيْطَانُ عَلَىٰ لِسَانِ بَعْضِ المَشَايِخِ الَّذِينَ يَقْتَدِي بِهِمُ التائِبُ، فيقولُ لَهُ: اخْرُجْ مِنْ مَالِكَ! وادْخُلْ فِي زُمْرَةِ الزُّهادِ! ومَتَىٰ كانَ لَكَ غَدَاءٌ أو عَشَاءٌ؛ فَلَسْتَ مِنْ أهلِ الزُّهْدِ، ولا تنالُ مَرَاتِبَ العَزْمِ، وربَّما كرَّرَ عَلَيْهِ الأحاديثَ البعيدةَ عن الصِّحَّة، والواردةَ علىٰ سببٍ ولمعنًى، فإذا أَخْرَجَ ما فِي يَدِهِ، وَتَعَطَّلَ عَنْ مَكَاسِبِهِ؛ عَادَ يُعَلِّقُ طَمَعَهُ بِصِلَةِ الإخوانِ، أَوْ يُحَسِّنُ عِنْدَهُ صُحْبَةَ السلطانِ؛ لأنَّهُ لا يَقْوَىٰ علىٰ طريقِ الزُّهدِ والتَّرْكِ إلَّا أيامًا، ثُمَّ يعودُ الطَّبْعُ، فَيَتَقَاضَىٰ مَطْلُوبَاتِهِ، فَيَقَعُ في أَقْبَحِ ممّا فرَّ مِنْهُ، وَيَبْذُلُ أوَّلَ السِّلَعِ في التَّحْصِيلِ دينَه وعِرْضَه، ويصيرُ مُتَمَنْدَلًا به[1]، وَيَقِفُ في مَقَامِ اليَدِ السُّفْلَىٰ.

٤١ ـ وَلَوْ أَنَّهُ نَظَرَ فِي سِيَرِ الرِّجَالِ وَنُبَلَائِهِمْ، وَتَأَمَّلَ صِحَاحَ الأَحَادِيْثِ عَنْ رُؤَسَائِهِمْ؛ لَعَلِمَ أنَّ الخَلِيلَ عليه الصّلاة والسلام كانَ كثيرَ المَالِ حتّىٰ ضَاقَتْ بَلْدَتُهُ بِمَوَاشِيهِ، وَكَذٰلِكَ لُوْطٌ عليه الصَّلاةُ والسلام، وكثيرٌ مِنَ الأنبياءِ عليهمُ الصّلاةُ والسّلامُ، والجَمُّ الغفيرُ من الصّحَابَةِ.

وإنّما صَبَرُوا عِنْدَ العُدْمِ، ولم يَمْتَنِعُوا مِنْ كَسْبِ ما يُصْلِحُهم، وَلا مِنْ تَنَاوُلِ المُبَاحِ عِنْدَ الوُجُودِ.

وكان أبو بَكْرٍ رضي الله عنه يَخْرُجُ للتجارةِ والرَّسُولُ ﷺ حيٌّ، وكانَ أكثرُهُمْ يُخْرِجُ فاضِلَ مَا يَأْخُذُ مِنْ بَيْتِ المَالِ، ويَسْلَمُ مِنْ ذُلِّ الحَاجَةِ إلىٰ الإخوانِ.

وقد كانَ ابنُ عُمَرَ لا يَرُدُّ شَيْئًا، وَلَا يَسْأَلُ.

٤٢ ـ وإنِّي تَأَمَّلْتُ عَلَىٰ أَكْثَرِ أَهْلِ الدِّيْنِ وَالعِلْمِ هٰذِهِ الحَالَ، فَوَجَدْتُ العِلْمَ شَغَلَهُمْ عَنِ الْمَكَاسِبِ فِي بِدَايَاتِهِمْ، فَلمَّا احتاجُوا إلىٰ قِوَامِ نُفُوسِهِمْ ذَلُّوا، وَهُمْ أَحَقُّ بِالْعِزِّ.

٤٣ ـ وَقَدْ كَانوا قَدِيمًا يَكْفِيهِمْ بَيْتُ المَالِ فَضَلاتِ الإخْوانِ، فَلمَّا عُدِمَتْ فِي

---

(١) أي هان عليه دينه وعرضه حتى أصبح كال: منديل الذي يبتذل فتمسح به الأقذار.

هٰذَا الْأَوَانِ؛ لَمْ يقدِرْ مُتَدَيِّنٌ عَلىٰ شيءٍ إلَّا بِبَذْلِ شيءٍ مِنْ دينِهِ، وليتَهُ قَدَرَ، فربَّما تَلِفَ الدِّيْنُ، ولَمْ يَحْصُلْ لَهُ شَيْءٌ.

٤٤ ـ فَالْوَاجِبُ عَلَىٰ العَاقِلِ أَنْ يَحْفَظَ مَا مَعَهُ، وأنْ يَجْتَهِدَ فِي الكَسْبِ لِيَرْبَحَ مُدَارَاةَ ظَالِمٍ أو مُدَاهَنَةَ جَاهِلٍ، وَلَا يَلْتَفِتَ إلىٰ تُرَّهَاتِ المُتَصَوِّفَةِ، الَّذِينَ يَدَّعُونَ فِي الفَقْرِ مَا يَدَّعُوْنَ؛ **فَمَا الفَقْرُ إلَّا مَرَضُ العَجَزَةِ**، وللصابِرِ عَلَىٰ الفَقْرِ ثوابُ الصَّابِرِ عَلَىٰ المَرَضِ، اللَّهمَّ! إلَّا أنْ يكونَ جَبَانًا عَنِ التَّصَرُّفِ، مُقْتَنِعًا بِالْكَفَافِ؛ فَلَيْسَ ذٰلِكَ مِن مَرَاتِبِ الأَبْطَالِ، بَلْ هُوَ مِنْ مَقَامَاتِ الجُبَنَاءِ الزُّهَّادِ.

وأمَّا الكَاسِبُ[1] ليكونَ المُعْطِيَ لا المُعْطَىٰ، والمُتَصَدِّقَ لا المُتَصَدَّقَ عَلَيْهِ؛ فهيَ مِنْ مَرَاتِبِ الشُّجْعَانِ الفُضَلَاءِ، ومَنْ تَأَمَّلَ هٰذَا؛ عَلِمَ شَرَفَ الغِنَىٰ، وَمُخَاطَرَةَ الفَقْرِ.

١٦ - فصل: حظوظ الفضلاء من الدنيا

٤٥ ـ **تَأَمَّلْتُ** أَحْوَالَ الفُضَلاءِ، فَوَجَدْتُهُمْ فِي الأَغْلَبِ قَدْ بُخِسُوا مِنْ حُظُوظِ الدُّنْيا، وَرَأَيْتُ الدُّنيا غَالِبًا فِي أَيْدِي أَهْلِ النَّقَائِصِ.

٤٦ ـ فَنَظَرْتُ في الفُضَلَاءِ؛ فَإِذَا هُمْ يَتَأَسَّفونَ عَلىٰ مَا فَاتَهُمْ ممّا نَالَهُ أُولُو النَّقْصِ، وَرُبَّما تَقَطَّعَ بَعْضُهُمْ أسفًا عَلىٰ ذٰلِكَ، فَخَاطَبْتُ بَعْضَ المُتَأَسِّفِينَ، فَقُلْتُ لَهُ: وَيْحَكَ! تَدَبَّرْ أَمْرَكَ؛ فإنَّكَ غَالِطٌ من وجوهٍ:

أحدُها: **أنَّهُ إنْ كانتْ لكَ هِمَّةٌ فِي طَلَبِ الدُّنيا؛ فاجْتَهِدْ فِي طَلَبِها**؛ تَرْبَحِ التَّأَسُّفَ عَلَىٰ فَوْتِهَا؛ فإنَّ قُعُودَكَ مُتَأَسِّفًا عَلَىٰ ما نَالَهُ غَيْرُكَ ـ مَعَ قُصورِ اجتهادِكَ ـ غايةُ العَجْزِ.

والثاني: **أنَّ الدُّنيا إنَّما تُرادُ لِتُعْبَرَ لا لِتُعْمَرَ**، وهٰذَا هُوَ الَّذِي يَدُلُّكَ عَلَيْهِ عِلْمُكَ، ويَبْلُغُهُ فَهْمُكَ، وَمَا يَنَالُهُ أهلُ النَّقْصِ مِنْ فُضُولِهَا[2] يُؤْذِي أَبْدَانَهُمْ وأديانَهُم. فَإِذَا عَرَفْتَ ذٰلِكَ، ثُمَّ تأسَّفْتَ عَلَىٰ فَقْدِ مَا فَقْدُهُ أَصْلَحُ لَكَ؛ كانَ تأسُّفُكَ عُقُوبَةً لِتَأَسُّفِكَ

(١) في الأصل: المكاسب، وهو تصحيف.
(٢) فضول الدنيا: حظوظها ونعيمها.

عَلَىٰ ما تَعْلَمُ المَصْلَحَةَ فِي بُعْدِهِ؛ فَاقْنعْ بِذٰلِكَ عَذَابًا عَاجِلًا إنْ سَلِمْتَ مِنَ الْعَذَابِ الآجِلِ.

والثالثُ: **أَنَّكَ قَدْ عَلِمْتَ بَخْسَ حَظِّ الآدَمِيِّ فِي الجُمْلَةِ مِنْ مَطَاعِمِ الدُّنْيَا وَلَذَّاتِهَا**، بالإِضَافَةِ إلىٰ الحَيَوَانِ البَهِيم؛ لأَنَّهُ يَنالُ ذٰلكَ أكثرَ مِقْدارًا مع أمنٍ، وأنتَ تَنَالُهُ مَعَ خَوْفٍ، وقِلَّةِ مِقْدَارٍ، فإذَا ضُوعِفَ حَظُّكَ مِنْ ذٰلِكَ لجنسِكَ؛ كَانَ ذٰلِكَ لاحِقًا بالحيوانِ البَهِيم؛ مِنْ جِهَةِ أَنَّهُ يَشْغَلُهُ ذٰلِكَ عَنْ تَحْصِيلِ الفَضَائِلِ، وَتَخْفِيفُ المُؤَنِ يَحُثُّ صَاحِبَهُ عَلَىٰ نَيْلِ المَرَاتِبِ.

فَإِذا آثَرْتَ مَعَ قِلَّةِ الفُضُولِ الفُضُولَ[1]؛ عُدْتَ علىٰ مَا عَلِمْتَ بالإِزْرَاءِ، فَشِنْتَ عِلْمَكَ[2]، وَدَلَلْتَ عَلَىٰ اخْتِلاطِ رَأْيِكَ[3].

١٧ - فصل: أحوال الناس مع المحظورات

٤٧ ـ **تَأَمَّلْتُ** إِقْدَامَ العُلَمَاءِ عَلَىٰ شَهَوَاتِ النَّفْسِ المَنْهِيِّ عَنْهَا، فَرَأَيْتُهَا مَرْتَبَةً تُزَاحِمُ الكُفْرَ؛ لَوْلا تَلَوُّحُ[4] معنًى: وهو أَنَّ النّاسَ عِنْدَ مُوَاقَعَةِ المَحْظُورِ يَنْقَسِمُونَ:

• فَمِنْهُمْ جَاهِلٌ بِالْمَحْظُورِ أَنَّهُ مَحْظُورٌ؛ فَهٰذَا لَهُ نَوْعُ عُذْرٍ.

وَمِنْهُمْ مَن يَظُنُّ المَحْظُورَ مَكْرُوهًا لَا مُحَرَّمًا؛ فهٰذا قَرِيبٌ مِنَ الأَوَّلِ، وَرُبَّما دَخَلَ فِي هٰذَا القِسْمِ آدمُ ﷺ.

• ومِنْهُمْ مَنْ يَتَأَوَّلُ فَيَغْلَطُ؛ كَمَا يُقَالُ: إنَّ آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ نُهِيَ عَنْ شَجَرَةٍ بِعَيْنِهَا، فَأَكَلَ مِنْ جِنْسِهَا لَا مِنْ عَيْنِهَا!

• وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْلَمُ التَّحْرِيمَ؛ غَيْرَ أنَّ غَلَبَاتِ الشهوةِ أَنْسَتْهُ تَذَكُّرَ ذَاكَ، فَشَغَلَهُ مَا رَأَىٰ عَمَّا يَعْلَمُ.

---

(١) آثرت مع قلة الفضولِ الفضولَ: أي آثرت الاجتهاد في طلب المكاسب مع علمك بأنّ حَظَّك منه قليل»... إلخ.

(٢) **شنت علمك**: أفسدته.

(٣) **اختلاط رأيك**: فساده.

(٤) **تلوح**: ظهور وبدو.

وَلِهٰذا لا يَذْكُرُ السَّارِقُ القَطْعَ، بَلْ يَغِيبُ بِكُلِّيَّتِهِ فِي نَيْلِ الحَظِّ، ولا يَذْكُرُ رَاكِبُ الفَاحِشَةِ الفَضِيحَةَ ولا الحَدَّ؛ لأنَّ ما يُرَىٰ يُذْهِلُهُ عَمّا يُعْلَمُ.

- ومنهم مَنْ يَعْلَمُ الحَظْرَ، ويَذْكُرُهُ؛ [غيرَ أنَّهُ يَغْتَرُّ بِالْحِلْمِ والعَفْو.

وهٰذَا وإنْ كانَ صَحِيحًا][1]؛ غيرَ أنَّ الأَخْذَ بِالْحَزْمِ أولى بالعاقل[2]، كَيْفَ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ هٰذا المَلِكَ الحَكِيمَ قَطَعَ اليَدَ فِي رُبُعِ دِينَارٍ[3]، وَهَدَمَ بناءَ الجِسْمِ المُحْكَمِ بِالرَّجْمِ بِالْحِجَارَةِ لالتذاذِ ساعةٍ[4]، وَخَسَفَ، وَمَسَخَ، وَأَغْرَقَ. . .؟!

١٨ - فصل: ميزان العدل لا يحابي

٤٨ - مَنْ تَأَمَّلَ أفعالَ البارئ سبحانَهُ، رَآها عَلىٰ قانونِ العَدْلِ، وشَاهَدَ الجَزَاءَ مُرْصَدًا للمُجَازَىٰ، وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ؛ فلا يَنْبَغِي أَنْ يَغْتَرَّ مُسامَحٌ؛ فَالجَزاءُ قَدْ يَتَأَخَّرُ.

٤٩ - وَمِنْ أَقْبَحِ الذُّنُوبِ الَّتِي قَدْ أُعِدَّ لَهَا الجَزَاءُ العَظِيمُ: الإِصْرَارُ عَلىٰ الذَّنْبِ، ثُمَّ يُصَانِعُ[5] صَاحِبُهُ باستغفارٍ وصلاةٍ وَتَعَبُّدٍ، وعندَهُ أنَّ المُصَانَعَةَ تَنْفَعُ!.

٥٠ - وَأَعْظَمُ الخَلْقِ اغترارًا مَنْ أَتَىٰ مَا يَكْرَهُهُ اللهُ، وطلبَ مِنْهُ مَا يُحِبُّه هُوَ؛ كَمَا رُوِيَ فِي الْحَدِيثِ: **«والعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّىٰ عَلىٰ اللهِ الأَمَانِي»**[6].

---

(١) زيادة من ط. (٢) في نسخة: أكمل.

(٣) تساءل المعري عن حكمة قطع اليد في ربع دينار مع أن ديتها خمس مئة دينار فقال:

يدٌ بخمسِ مئينَ عسجدٍ وُدِيَت ... ما بالها قطعت في ربع دينارِ

فأجابه القاضي عبد الوهاب المالكي:

عزُّ الأمانةِ أغلاها، وأرخصها ... ذُلُّ الخيانةِ، فافهم حكمة الباري

(٤) قال الرافعي في (وحي القلم): لماذا أوجبت الشريعة الرجم بالحجارة على الفاسق المحصن؟ أهي تريد التمثيل والتعذيب والمُثلة؟ كلا، فإن القتل ممكن بغير هذا وبأشد من هذا، ولكنها الحكمة السامية العجيبة أن هذا الفاسق هدم بيتًا فهو يرجم بحجارته.

(٥) **يصانع**: يعامل، لكن حقوق الله مبنية على المسامحة، وحقوق العباد على المشاحة، أي: لا بد من استسماح أصحاب الحقوق.

(٦) رواه الترمذي (٢٤٥٩) وابن ماجه (٤٢٦٠) وأحمد (٤/ ١٢٤) عن شداد بن أوس، وأوله: الكيس من دان نفسه. . . (ضعيف).

٥١ ـ وَمِمّا يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَتَرَصَّدَه وُقُوعُ الجَزَاءِ، فإنَّ ابنَ سِيرينَ[١] قالَ: عَيَّرْتُ رَجُلًا فَقُلْتُ: يا مُفْلِسُ! فَأَفْلَسْتُ بَعْدَ أَرْبَعِينَ سنةً.

وقالَ ابنُ الجَلَّاءِ[٢]: رَآنِي شَيْخٌ لي وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَىٰ أَمْرَدَ! فَقَالَ: مَا هٰذَا؟! لَتَجِدَنَّ غِبَّها. فَنُسِّيتُ القُرْآنَ بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنةً.

٥٢ ـ وَبالضِّدِّ مِنْ هٰذا؛ كُلُّ مَن عَمِلَ خيرًا، أو صَحَّح نيةً؛ فَلْيَنْتَظِرْ جَزَاءَهَا الحَسَنَ، وَإِنِ امْتَدَّتِ المُدَّةُ. قال الله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**مَنْ غَضَّ بَصَرَهُ عَنْ مَحَاسِنِ امرأةٍ؛ أَثابَهُ اللهُ إِيْمَانًا يَجِدُ حَلَاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ**»[٣] فليعلمِ العَاقِلُ أنَّ **مِيْزَانَ العَدْلِ لا يُحَابِي**.

١٩ - فصل: أكثر أحوال الصوفية منحرف عن الشريعة

٥٣ ـ **تأَمَّلْتُ** أَحْوَالَ الصُّوفِيَّةِ والزُّهَّادِ، فرأيتُ أكثرَها مُنْحَرِفًا عنِ الشَّرِيعَةِ؛ بَيْنَ جَهْلٍ بِالشَّرْعِ، وَابْتِدَاعٍ بِالرَّأْيِ؛ **يَسْتَدِلُّونَ بآياتٍ لا يَفْهَمُونَ مَعْنَاهَا، وَبِأَحَادِيْثَ لَهَا أَسْبَابٌ، وَجُمْهُورُهَا لا يَثْبُتُ**.

فَمِنْ ذٰلِكَ أَنَّهُمْ سَمِعُوا في القرآنِ العزيزِ: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ﴿أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾ [الحديد: ٢٠]، ثُمَّ سَمِعُوا فِي الحَدِيثِ: «**للدُّنيا أَهْوَنُ عَلَىٰ اللهِ مِنْ شاةٍ مَيِّتَةٍ علىٰ أَهْلِهَا**»[٤]؛ فبالغوا في هَجْرِها من غير بحثٍ عن حقيقتها! وذٰلك أنه ما لم يُعْرَف حقيقةُ الشيء؛ فلا يجوز أن يُمْدَحَ ولا أن يُذَمَّ.

---

(١) محمد بن سيرين البصري، أبو بكر، إمام وقته في علوم الدين، تابعي، مولده ووفاته بالبصرة (٣٣ ـ ١١٠هـ) اشتهر بالورع وتعبير الرؤيا.

(٢) أبو عبد الله ابن الجلَّاء، أحمد بن يحيى، وقيل: محمد بن يحيى، من كبار الصوفية، انتقل عن بغداد إلى الشام، توفي سنة (٣٠٦هـ). قلت: وقد وقع في الأصل: ابن الجلاد، وهو خطأ.

(٣) رواه أحمد (٥/ ٢٦٤) والطبراني في الكبير (٧٨٤٢) عن أبي أمامة، والطبراني (١٠٣٦٢) عن ابن مسعود، والحاكم (٤/ ٣١٣) والقضاعي (٢٩٢) عن حذيفة (ضعيف جدًا).

(٤) رواه مسلم (٢٩٥٧) عن جابر رضي الله عنه.

٥٤ ـ فَإِذَا بَحَثْنَا عَنِ الدُّنيا؛ رَأَيْنَا هٰذِهِ الأَرْضَ البَسِيطَةَ، الّتِي جُعِلَتْ قَرارًا لِلْخَلْقِ؛ تَخْرُجُ مِنْهَا أَقواتُهُمْ، ويُدْفَنُ فِيهَا أَمْوَاتُهُمْ. وَمِثْلُ هٰذَا لا يُذَمُّ لِمَوْضِعِ المَصْلَحَةِ فِيهِ.

٥٥ ـ وَرَأَيْنَا ما عَلَيْهَا مِنْ ماءٍ وَزَرْعٍ وَحَيَوَانٍ؛ كُلُّهُ لِمَصَالِحِ الآدَمِيِّ، وَفِيهِ حِفْظٌ لِسَبَبِ بَقَائِهِ، وَرَأَيْنَا بَقَاءَ الآدَمِيِّ سببًا لِمَعْرِفَةِ رَبِّهِ، وَطَاعَتِهِ إيَّاهُ وَخِدْمَتِهِ. وَمَا كَانَ سببًا لبقاءِ العَارِفِ العَابِدِ يُمْدَحُ ولا يُذَمُّ.

٥٦ ـ فَبَانَ لنا أنَّ الذَّمَّ إنَّما هُوَ لِأَفْعَالِ الجَاهِلِ، أو العَاصِي في الدُّنيا، فإنَّه إذا **اقْتَنَىٰ المَالَ المُبَاحَ**، وأدَّىٰ زكاتَه؛ لَمْ يُلَمْ، فقد عُلِمَ ما خَلَّفَ **الزُّبَيْرُ وابْنُ عَوْفٍ** وغيرُهُما، وَبَلَغَتْ صَدَقَةُ عليٍّ رضي الله عنه أربعينَ ألفًا، وَخَلَّفَ ابنُ مَسْعُودٍ تِسْعِينَ ألفًا، وكانَ اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ[1] يَسْتَغِلُّ[2] كُلَّ سنةٍ عِشْرِينَ ألفًا، وكان سفيانُ[3] يتَّجِرُ بمالٍ، وكانَ ابنُ مِهْدِيٍّ[4] يَسْتَغِلُ[2] كُلَّ سَنَةٍ ألفَيْ دِيْنَارٍ.

٥٧ ـ وإنْ أكْثَرَ مِنَ **النِّكَاحِ** والسَّرَارِيِّ؛ كانَ مَمْدُوحًا لا مَذْمُومًا، **فقد كانَ للنبيِّ ﷺ زَوْجَاتٌ وسراريُّ**، وجُمْهُورُ الصَّحَابةِ كانوا عَلَىٰ الإكْثارِ في ذٰلِكَ، وكانَ لِعَلِيِّ بْنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه أربعُ حَرَائِرَ، وسَبْعَ عَشْرَةَ أمَةً، وتزوَّجَ ولدُهُ الحَسَنُ نحوًا من أربعِ مئةٍ.

٥٨ ـ فإنْ طلبَ التزوُّجَ للأولادِ؛ فهوَ الغايةُ في التَّعَبّدِ، وَإنْ أرادَ التَّلَذُّذَ؛ فَمُبَاحٌ، يَنْدَرِجُ فيهِ مِنَ التَّعَبُّدِ مَا لا يُحْصَىٰ؛ مِنْ إعْفَافِ نفسِهِ والمرأةِ.. إلىٰ غيرِ ذٰلِكَ. وَقَدْ أَنْفَقَ مُوسَىٰ عليه السلام مِنْ عُمُرِهِ الشَّرِيفِ عَشْرَ سنينَ في مَهْرِ ابنةِ شُعَيْبٍ، فلولا أنَّ النِّكَاحَ مِنْ أفضلِ الأَشْيَاءِ؛ لَمَا ذَهَبَ كثيرٌ مِنْ زَمَانِ الأَنْبِيَاءِ فِيهِ. وقد قالَ ابنُ

---

(١) الليث بن سعد، أبو الحارث (٩٤ ـ ١٧٥هـ) إمام أهل مصر في عصره حديثًا وفقهًا، ومن الأجواد المشهورين.

(٢) يستغل: تبلغ غلتها. وفي الأصل يشتغل، وهو تصحيف.

(٣) سفيان بن سعيد بن مسروق الكوفي (٩٧ ـ ١٧٥هـ) أمير المؤمنين في الحديث، وسيد أهل زمانه علمًا وفتوى، مات مستخفيًا في البصرة.

(٤) عبد الرحمٰن بن مهدي اللؤلؤي، أبو سعيد من كبار حفاظ الحديث، وإليه كتب الشافعي كتاب الرسالة، وقال: لا أعرف له نظيرًا في الدنيا.

عَبَّاسٍ ﷺ: خِيَارُ هٰذِهِ الأُمةِ أكثرُهَا نِسَاءً، وَكَانَ يَطَأُ جارِيةً لَهُ، وَيَنْزِلُ فِي أُخْرَىٰ. وَقَالَتْ سُرِّيَةُ[1] الرَّبِيعِ بْنِ خُثَيْمٍ[2]: كانَ الرَّبِيْعُ يَعْزِلُ[3].

٥٩ ـ وَأَمَّا **المَطْعَمُ**؛ فالمُرَادُ مِنْهُ تَقْوِيَةُ هٰذَا البَدَنِ لِخِدْمَةِ اللهِ ﷻ، وَحَقٌّ عَلَىٰ ذِي النَّاقَةِ أنْ يُكْرِمَها لِتَحْمِلَهُ.

وَقَدْ **كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَأْكُلُ مَا وَجَدَ؛ فَإِنْ وَجَدَ اللَّحْمَ أَكَلَهُ، وَيَأْكُلُ لَحْمَ الدَّجَاجِ**[4]**، وَأَحَبُّ الأَشْيَاءِ إِلَيْهِ الحَلْوَىٰ وَالْعَسَلُ**[5]، وما نُقِلَ عَنْهُ أَنَّهُ امتنعَ مِنْ مُبَاحٍ.

وَجِيءَ عَلِيٌّ ﷺ بِفَالُوذَجٍ[6]، فَأَكَلَ مِنْهُ، وَقَالَ: مَا هٰذَا؟ قَالُوا: يَوْمُ النَّوْرُوْزِ[7]. فَقَالَ: نَوْرِزُونَا كُلَّ يَوْمٍ.

وَإِنَّمَا يُكْرَهُ الأَكْلُ فَوْقَ الشِّبَعِ، وَاللُّبْسُ عَلَىٰ وَجْهِ الاختيالِ والبَطَرِ.

٦٠ ـ وَقَدِ اقْتَنَعَ أَقْوَامٌ بِالدُّوْنِ مِنْ ذٰلِكَ؛ لأَنَّ الحَلالَ الصَّافِي لا يَكَادُ يُمْكِنُ فِيهِ تَحْصِيلُ المُرَادِ، وَإِلَّا؛ فَقَدْ **لَبِسَ النبيُّ ﷺ حُلَّةً اشْتُرِيَتْ له بِسَبْعَةٍ وَعِشْرِينَ بَعِيرًا**[8]، وكان لتميمٍ الداريِّ حُلَّةٌ اشْتُرِيَتْ بألفِ درهم يصلِّي فيها بالليل.

٦١ ـ فَجَاءَ أَقْوَامٌ، فَأَظْهَرُوا التَزَهُّدَ، وابْتَكَرُوا طَرِيقَةً زَيَّنَهَا لَهُمْ الهَوَىٰ، ثُمَّ تَطَلَّبُوا لَهَا الدَّلِيلَ، وَإِنَّمَا **يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَتَّبِعَ الدَّلِيلَ، لا أَنْ يَتَّبِعَ طَرِيقًا، ويتطلَّبَ دَلِيلَهَا!**

---

(١) **السرية**: الأمة التي يقتنيها سيدها ليتمتع بها.

(٢) أبو يزيد الثوري الكوفي، عابد مخضرم، كان يعد من عقلاء الرجال، توفي سنة (٦٥هـ).

(٣) **يعزل**: أي لا يدع جاريته تحمل منه.

(٤) رواه البخاري (٥٥١٧ و٥٥١٨)، ومسلم (١٢٦٨ و١٦٤٩) عن أبي موسى ﷺ.

(٥) رواه البخاري (٤٩١٢ و٥٤٣١) عن عائشة ﷺ.

(٦) **الفالوذج**: فارسي معرب (بالوده) أي: الصافي والمصفى، وهو نوع من الحلوى تصنع من الدقيق والماء والعسل، وتسمّى الآن (بالوظة) وهي تشبه الجيلي.

(٧) **النوروز**: فارسي معرب معناه: اليوم الجديد، وهو عيد رأس السنة عند الفرس، ويصادف أول فصل الربيع.

(٨) لم أجده لكن روى أبو داود (٤٠٣٤) عن أنس بن مالك: أن الملك ذا يزن أهدى إلى رسول الله ﷺ حلة أخذها بثلاثة وثلاثين بعيرًا، فقبلها. (ضعيف).

ثم انقسموا:

• **فَمِنْهُمْ مُتَصَنِّعٌ فِي الظَّاهِرِ، لَيْثُ الشَّرَىٰ[1] فِي البَاطِنِ**، يَتَنَاوَلُ فِي خَلَوَاتِهِ الشَّهَوَاتِ، وَيَنْعَكِفُ عَلَىٰ اللَّذَّاتِ، وَيُرِي النَّاسَ بِزِيِّه أَنَّهُ مُتَصَوِّفٌ مُتَزَهِّدٌ، وَمَا تَزَهَّدَ إِلَّا القَمِيصُ، وإِذَا نُظِرَ إِلَىٰ أَحْوَالِهِ؛ فَعِنْدَهُ كِبْرُ فِرْعَوْنَ.

• وَمِنْهُمْ **سَلِيمُ الْبَاطِنِ؛ إِلَّا أَنَّهُ فِي الشَّرْعِ جاهلٌ.**

• ومِنْهُمْ مَنْ تصدَّر، وصَنَّفَ، فَاقْتَدَىٰ بِهِ الجَاهِلُونَ فِي هٰذِهِ الطَّرِيقَةِ، وَكَانُوا كَعُمْيٍ اتَّبَعُوا أَعْمَىٰ، وَلَوْ أَنَّهُمْ تَلَمَّحُوا[2] لِلأَمْرِ الأَوَّلِ، الَّذِي كَانَ عليهِ الرَّسُولُ ﷺ والصحابةُ رضي الله عنهم؛ لَمَا زَاغُوْا.

٦٢ - **وَلَقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِنَ المُحَقِّقِينَ لا يُبَالُونَ بِمُعَظَّم فِي النُّفُوسِ إِذَا حَادَ عَنِ الشَّرِيعَةِ، بَلْ يُوْسِعُونَه لَوْمًا**، فَنُقِلَ عَنْ أَحْمَدَ أَنَّهُ قَالَ لَهُ الْمِرْوَذِيُّ[3]: مَا تَقُولُ فِي النِّكَاحِ؟ فَقَالَ: **سُنَّةُ النبيِّ** ﷺ. فَقَالَ: فَقَدْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ[4].. قَالَ: فَصَاحَ بِي، وقالَ: **جِئْتَنَا بِبُنَيَّاتِ الطريقِ؟**[5].

وَقِيلَ لَهُ: إِنَّ سَرِيًّا السَّقَطِيَّ[6] قَالَ: لَمّا خَلَقَ اللهُ تَعَالَىٰ الحُرُوفَ؛ وَقَفَ الأَلِفُ، وَسَجَدَتِ البَاءُ.. فَقَالَ: **نَفِّرُوا النّاسَ عَنْهُ.**

٦٣ - وَاعْلَمْ أَنَّ المُحَقِّقَ لا يَهُولُهُ اسمُ مُعَظَّمٍ؛ كَمَا قَالَ رَجُلٌ لعليِّ بْنِ أبي طَالِبٍ رضي الله عنه: أَتَظُنُّ أنّا نَظُنُّ أَنَّ طَلْحَةَ والزُّبَيْرَ كَانَا عَلَىٰ البَاطِلِ؟ فَقَالَ لهُ: **إِنَّ الحَقَّ لا يُعْرَفُ بِالرِّجَالِ، اعْرِفِ الحَقَّ؛ تَعْرِفْ أَهْلَهُ.**

٦٤ - وَلَعَمْرِي؛ إِنَّهُ قَدْ وَقَرَ فِي النُّفُوسِ تَعْظِيمُ أَقْوَامٍ؛ فَإِذَا نُقِلَ عَنْهُمْ شَيْءٌ،

---

(١) الشرى: جبل بتهامة تكثر فيها الأسود. (٢) **تلمحوا**: نظروا.

(٣) أحمد بن محمد بن الحجاج، أبو بكر المروذي، المقدّم من أصحاب أحمد لورعه وفضله، ولد في حدود المئتين، وتوفي سنة (٢٧٥هـ)، وقد جاء في الأصل (المروزي) والتصويب من (سير أعلام النبلاء).

(٤) هو ابن أدهم التميمي البلخي، أبو إسحاق زاهد مشهور توفي سنة (١٦١هـ).

(٥) بنيات الطريق: الترهات. انظر: تمام كلام الإمام في الفصل (٣٤).

(٦) سري بن المغلّس، أبو الحسن (١٦٠ - ٢٥٣هـ) من كبار المتصوفة، بغدادي المولد والوفاة، هو خال الإمام الجنيد وأستاذه.

فَسَمِعَهُ جَاهِلٌ بِالشَّرْعِ؛ قَبِلَهُ؛ لِتَعْظِيمِهِمْ فِي نَفْسِهِ، كَمَا يُنْقَلُ عَنْ أَبِي يَزِيدَ[1] رضي الله عنه: أَنَّهُ قَالَ: تَرَاعَنَتْ[2] عليَّ نَفْسِي، فَحَلَفْتُ لَا أَشْرَبُ المَاءَ سنةً[3]. وَهٰذَا إذا صَحَّ عَنْهُ؛ كَانَ خَطَأً قَبِيحًا، وَزَلَّةً فَاحِشَةً؛ لأنَّ المَاءَ يُنْفِذُ الأَغْذِيَةَ إِلَىٰ البَدَنِ، وَلَا يَقُومُ مَقَامَهُ شَيْءٌ؛ فَإِذَا لَمْ يَشْرَبْ؛ فَقَدْ سَعَىٰ فِي أَذَىٰ بَدَنِهِ، وَقَدْ **كَانَ يُسْتَعْذَبُ المَاءُ لِرَسُولِ اللهِ** ﷺ[4].

أَفَتَرَىٰ هٰذَا فِعْلَ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّ نَفْسَهُ لَيْسَتْ لَهُ، وَأَنَّهُ لَا يَجُوزُ التَّصَرُّفُ فِيهَا إِلَّا عَنْ إِذْنِ مَالِكِهَا؟!

٦٥ ـ وَكَذٰلِكَ يَنْقُلُونَ عَنْ بَعْضِ الصُّوفِيَّةِ: أَنَّهُ قَالَ: سِرْتُ إِلَىٰ مَكَّةَ عَلَىٰ طَرِيقِ التَّوَكُّلِ حَافِيًا، فَكَانَتِ الشَّوْكَةُ تَدْخُلُ فِي رِجْلِي، فَأَحُكُّهَا بِالْأَرْضِ، ولا أَرْفَعُهَا، وَكَانَ عَلَيَّ مِسْحٌ[5]، فَكَانَتْ عَيْنِي إِذَا آلَمَتْنِي؛ أَدْلُكُهَا بِالْمَسْحِ، فَذَهَبَتْ إِحْدَىٰ عَيْنَيَّ. وَأَمْثَالُ هٰذَا كثيرٌ، وَرُبَّما حَمَلَها القُصَّاصُ عَلَىٰ الكَرَامَاتِ، وَعَظَّمُوهَا عِنْدَ العَوَامِّ، فَيُخَايَلُ لَهُمْ أنَّ فَاعِلَ هٰذَا أَعْلَىٰ مَرْتَبَةً مِنَ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ.

وَلَعَمْرِي؛ إِنَّ هٰذا مِنْ أَعْظَمِ الذُّنُوبِ، وَأَقْبَحِ العُيُوبِ: لأنّ اللهَ تعالىٰ قالَ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ [النساء: ٢٩]، وقال النبيُّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا**»[6]. وَقَدْ **طَلَبَ أَبُو بَكْرٍ** رضي الله عنه فِي طَرِيقِ الهِجْرَةِ لِلنَّبِيِّ ﷺ ظِلًّا، حَتَّىٰ رَأَىٰ صَخْرَةً، فَفَرَشَ لَهُ فِي ظِلِّهَا[7].

٦٦ ـ وَقَدْ نُقِلَ عَنْ قُدَمَاءِ هٰذِهِ الأُمَّةِ بِدَايَاتُ هٰذَا التَّفْرِيطِ، وَكَانَ سَبَبُهُ مِنْ وَجْهَيْنِ: أحدُهُمَا: **الجَهْلُ بِالْعِلْمِ**. والثاني: **قُرْبُ الْعَهْدِ بِالرَّهْبَانِيَّةِ**.

---

(١) طيفور بن عيسى البسطامي، أبو يزيد (١٨٨ ـ ٢٦١هـ) زاهد مشهور، ولد وتوفي في (بسطام).

(٢) **تراعنت**: هاجت وتمردت.

(٣) لعله يقصد الماء البارد، لا مطلق الماء.

(٤) رواه أبو داود (٣٧٣٥) والحاكم (٤/ ١٣٨) عن عائشة رضي الله عنها.

(٥) **المسح**: كساء من شعر أو صوف، وهو لباس الرهبان.

(٦) رواه البخاري (١١٥٣)، ومسلم (١١٥٩) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما كما ذكرهُ المؤلف في الفصل (١٦٢).

(٧) رواه البخاري (٣٦٥٢)، ومسلم (٢٠٠٩) عن البراء رضي الله عنه، ويسمّى حديثَ الرحلِ.

وَقَدْ كَانَ الحَسَنُ[1] يَعِيبُ فَرْقَدًا السَّبْخِيَّ[2] وَمَالِكَ بْنَ دِينَارٍ[3] فِي زُهْدِهِمَا، فَرُئِيَ عِنْدَهُ طَعَامٌ فِيهِ لَحْمٌ، فَقَالَ: لا رَغِيفَيْ مالكٍ، ولا صَحْنَيْ فَرْقَدٍ.

وَرَأَىٰ عَلَىٰ فَرْقَدٍ كِسَاءً، فَقَالَ: يا فَرْقَدُ! إنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ أَصْحَابُ الأَكْسِيَةِ.

٦٧ ـ وَكَمْ قَدْ زَوَّقَ قَاصٌّ مَجْلِسَهُ بِذِكْرِ أَقْوَامٍ خَرَجُوا إِلَىٰ السِّيَاحَةِ بلا زَادٍ ولا مَاءٍ، وَهُوَ لا يَعْلَمُ أنَّ هٰذَا مِنْ أَقْبَحِ الأَفْعَالِ، **وَأَنَّ اللهَ تَعَالىٰ لا يُجَرَّبُ عَلَيْهِ**؛ فَرُبَّمَا سَمِعَهُ جَاهِلٌ مِنَ التَّائِبِينَ، فَخَرَجَ، فَمَاتَ فِي الطَّرِيقِ، فَصَارَ لِلْقَائِلِ نَصِيبٌ مِنْ إثمِهِ!!

وَكَمْ يَرْوُونَ عَنْ ذِي النُّونِ[4]: أَنَّهُ لَقِيَ امرأةً في السِّيَاحَةِ، فَكَلَّمَهَا وَكَلَّمَتْهُ، وَيَنْسَونَ الأَحَادِيثَ الصِّحَاحَ: «**لا يَحِلُّ لامرأةٍ أنْ تُسَافِرَ يومًا وليلةً إلَّا بِمَحْرَمٍ**»[5]!!

٦٨ ـ وَكَمْ يَنْقُلُونَ أَنَّ أَقْوَامًا مَشَوْا علىٰ المَاءِ؛ وَقَدْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ الحَرْبِيُّ[6]: لَا يَصِحُّ أَنَّ أَحَدًا مَشَىٰ عَلَىٰ الماءِ قَطُّ! فَإِذَا سَمِعُوا هٰذَا؛ **قَالُوا**: أَتُنْكِرُونَ كَرَامَاتِ الأَوْلِيَاءِ الصَّالِحِينَ؟! **فَنَقُولُ**: لَسْنَا مِنَ المُنْكِرِينَ لَهَا، بَلْ نَتَّبِعُ مَا صَحَّ، **والصَّالِحُونَ هُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّرْعَ، ولا يَتَعَبَّدُونَ بِآرائِهِمْ**. وَفِي الحَدِيثِ: «**إنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ شَدَّدُوا فَشَدَّدَ اللهُ عَلَيْهِمْ**»[7].

٦٩ ـ وَكَمْ يَحُثُّونَ عَلَىٰ الفَقْرِ، حَتَّىٰ حَمَلُوا أَقْوَامًا عَلَىٰ إِخْرَاجِ أَمْوَالِهِمْ، ثُمَّ آلَ بِهِمُ الأَمْرُ: إِمَّا إِلَىٰ التَّسَخُّطِ عِنْدَ الحَاجَةِ، وَإِمَّا إِلَىٰ التَعرُّضِ بسؤالِ النّاسِ!

٧٠ ـ وَكَمْ تَأَذَّىٰ مُسْلِمٌ بِأَمْرِهِمُ النَاسَ بِالتَقَلُّلِ! وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**ثلثٌ طَعَامٌ،**

---

(١) أبو سعيد، الحسن بن يسار البصري (٢١ ـ ١١٠هـ) سيد التابعين، حبر الأمة في عصره، كان عالمًا زاهدًا شجاعًا، فصيحًا.

(٢) فرقد بن يعقوب السبخي، أبو يعقوب، أحد زهاد البصرة، توفي سنة (١٣١هـ)، كان صدوقًا عابدًا. قلت: وقد وقع في الأصل: السنجي، وهو خطأ.

(٣) مالك بن دينار البصري، أبو يحيى، علم العلماء الأبرار، وأحد ثقات التابعين، كان يتكسّب من نسخ المصاحف، توفي سنة (١٢٧هـ).

(٤) ثوبان بن إبراهيم الإخميمي المصري أبو الفيض، الزاهد المشهور، ولد في أواخر عهد المنصور، نوبي الأصل، توفي في الجيزة سنة (٤٤٥هـ).

(٥) رواه البخاري (١٠٨٨)، ومسلم (١٣٣٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) إبراهيم بن إسحاق الحربي، من أعلام المحدثين (١٩٨ ـ ٢٨٥هـ)، تفقه على الإمام أحمد.

(٧) رواه أبو داود (٤٩٠٤) عن أنس رضي الله عنه.

وَثُلُثٌ شَرَابٌ، وَثُلُثٌ نَفَسٌ»[1]؛ فَمَا قَنَعُوا حتّىٰ أَمَرُوا بِالمُبَالَغَةِ فِي التَقَلُّلِ.

فَحَكَىٰ أَبُو طَالِبٍ المَكِّيُّ[2] في (قُوتِ الْقُلُوبِ): أَنَّ فِيهِمْ مَنْ كَانَ يَزِنُ قُوتَهُ بِكَرَبَةٍ[3] رَطبَةٍ؛ فَفِي كُلِّ لَيْلَةٍ يَذْهَبُ مِنْ رُطُوبَتِهَا قَلِيلٌ. وَكُنْتُ أنا[4] ممَّنِ اقْتَدَىٰ بِقَوْلِهِ فِي الصِّبا، فَضَاقَ المَعْيُ، وَأَوْجَبَ ذٰلِكَ مَرَضَ سِنِينَ! أَفَتَرَىٰ هٰذَا شَيْئًا تَقْتَضِيهِ الحِكْمَةُ، أَوْ نَدَبَ إِلَيْهِ الشَّرْعُ؟! وَإِنَّمَا مَطِيَّةُ الآدَمِيِّ قُوَاهُ؛ فَإِذَا سَعَىٰ فِي تَقْلِيلِهَا؛ ضَعُفَ عَنِ العِبَادَةِ.

٧١ ـ [وَلا تَقُولَنَّ: الحُصُولُ عَلَىٰ الحَلَالِ المَحْضِ مُسْتَحِيلٌ؛ لِذٰلِكَ وَجَبَ الزُّهْدُ؛ تَجَنُّبًا لِلشُّبُهَاتِ؛ فَإِنَّ المُؤْمِنَ حَسْبُهُ أَنْ يَتَحَرَّىٰ فِي كَسْبِهِ هُوَ الحَلَالَ، وَلَا عَلَيْهِ مِنَ الْأُصُولِ الّتِي نَبَتَتْ مِنْهَا هٰذِهِ الأَمْوَالُ][5] فَإِنّا لَوْ دَخَلْنَا دِيَارَ الرُّومِ، فَوَجَدْنَا أَثْمَانَ الخُمُورِ، وَأُجْرَةَ الفُجُورِ؛ كَانَ لنا حَلَالًا بِوَصْفه الغَنِيمَة.

أَفَتُرِيدُ حَلالًا عَلَىٰ مَعْنَىٰ أَنَّ الحَبَّةَ[6] مِنَ الذَّهَبِ لَمْ تَنْتَقِلْ مُذْ خَرَجَتْ مِنَ المَعْدِنِ[7] عَلىٰ وَجْهٍ لا يَجُوزُ؟! فَهٰذَا شَيْءٌ لَمْ يَنْظُرْ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

أَوَلَيْسَ قَدْ سَمِعْتَ **أَنَّ الصَّدَقَةَ عَلَيْهِ حَرَامٌ، فَلَمَّا تُصُدِّقَ عَلَىٰ بَرِيرَةَ بِلَحْمٍ، فَأَهْدَتْهُ؛ جَازَ لَهُ أَكْلُ تِلْكَ العَيْنِ لِتَغَيُّرِ الوَصْفِ**[8].

٧٢ ـ وَقَدْ قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلَ: أَكْرَهُ التَّقَلُّلَ مِنَ الطَّعَامِ؛ فَإِنَّ أقوامًا فَعَلُوهُ؛ فَعَجَزُوا عَنِ الفَرَائِضِ، وَهٰذَا صَحِيحٌ؛ فَإِنَّ المُتَقَلِّلَ لا يَزَالُ يَتَقَلَّلُ إِلَىٰ أَنْ يَعْجِزَ عَنِ النَّوَافِلِ، ثُمَّ الفَرائِضِ، ثُمَّ يَعْجِزَ عَنْ مُبَاشَرَةِ أَهْلِهِ وَإِعْفَافِهِمْ، وَعَنْ بَذْلِ القُوَىٰ فِي الكَسْبِ لَهُمْ، وَعَنْ فِعْلِ خَيْرٍ قَدْ كَانَ يَفْعَلُهُ.

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٨٠)، وابن ماجه (٣٣٤٩)، والحاكم (٤/ ١٢١) عن المقدام بن معدي كرب.

(٢) محمد بن علي بن عطية الحارثي، أبو طالب، واعظ زاهد فقيه، نشأ واشتهر بمكة، ثم سكن بغداد فوعظ فيها، وبها توفي سنة (٣٨٦هـ).

(٣) **الكربة**: الأصل العريض للسعف إذا يبس، أما الطري منها فيؤكل.

(٤) أي مؤلف هذا الكتاب.

(٥) زيادة من (أ).

(٦) الحبة = ٠,٠٤٤٦ غم.

(٧) المعدن: المنجم.

(٨) عن عائشة رضي الله عنها قالت: أتي النبي ﷺ بلحم بقر، فقيل: هذا ما تصدق به على بريرة، فقال: «هو لها صدقة، ولنا هدية» رواه البخاري (٢٥٧٨) ومسلم (١٠٧٥).

٧٣ ـ وَلا يَهُوْلَنَّكَ مَا تَسْمَعُهُ مِنَ الأَحَادِيثِ الَّتِي تَحُثُّ عَلَىٰ الجُوْعِ؛ فَإِنَّ المُرَادَ بِهَا: إِمَّا الحَثُّ عَلَىٰ الصَّوْمِ، وإمّا النَّهْيُ عن مقاومةِ الشِّبَعِ[١]؛ فأمَّا تَنْقِيصُ المَطْعَمِ عَلَىٰ الدَّوَامِ؛ فَمُؤَثِّرٌ فِي القُوَىٰ؛ فَلَا يَجُوزُ.

٧٤ ـ ثُمَّ فِي هٰؤُلاءِ المَذْمُومِيْنَ مَنْ يَرَىٰ هَجْرَ اللَّحْمِ، والنَّبِيُّ ﷺ كَانَ يَوَدُّ أَنْ يَأْكُلَهُ كُلَّ يَوْمٍ[٢].

٧٥ ـ واسْمَعْ مِنِّي بِلا مُحَابَاةٍ: لا تَحْتَجَّنَّ عَلَيَّ بأسماءِ الرِّجَالِ، فَتَقُولُ: قد قَالَ بِشْرٌ[٣]، وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ؛ فَإِنَّ مَنِ احْتَجَّ **بالرَّسُولِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ رضوانُ اللهِ عليهم أَقْوَىٰ حُجَّةً**. علىٰ أنَّ لِأَفْعَالِ أولٰئكَ وُجُوهًا نَحْمِلُهَا عَلَيْهِمْ بِحُسْنِ الظَّنِّ.

وَلَقَدْ ذَاكَرْتُ بَعْضَ مَشَايِخِنَا مَا يُرْوَىٰ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ السَّادَاتِ أَنَّهُمْ دَفَنُوا كُتُبَهُمْ! **فَقُلْتُ لَهُ**: مَا وَجْهُ هٰذا؟ **فَقَالَ**: أَحْسَنُ مَا نَقُولُ أنْ نَسْكُتَ! يُشِيرُ إِلَىٰ أنَّ هٰذا جَهْلٌ مِنْ فَاعِلِهِ. وَتَأَوَّلْتُ أَنَا لَهُمْ، **فَقُلْتُ**: لَعَلَّ مَا دَفَنُوا مِنْ كُتُبِهِمْ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الرَّأْيِ؛ فَمَا رَأَوْا أنْ يَعْمَلَ النّاسُ بِهِ.

وَلَقَدْ رُوِّيْنَا فِي الحَدِيثِ[٤] عَنْ أَحْمَدَ بْنِ أَبي الحَوَارِي[٥]: أنّه أَخَذَ كُتُبَهُ، فَرَمَىٰ بِهَا فِي الْبَحْرِ، **وَقَالَ**: نِعْمَ الدَّلِيلُ كُنْتِ، وَلَا حَاجَةَ لَنَا إلىٰ الدَّلِيلِ بَعْدَ الوُصُولِ إِلَىٰ المَدْلُولِ!

وهٰذَا إِذَا أَحْسَنَّا بِهِ الظَّنَّ؛ **قُلْنَا**: كَانَ فِيهَا مِنْ كلامِهِمْ ما لا يَرْتَضِيهِ، فَأَمَّا إذا كَانَتْ عُلُومًا صَحِيْحَةً؛ كَانَ هٰذَا مِنْ أَفْحَشِ الإِضاعَةِ.

وَأَنَا، وَإِنْ تَأَوَّلْتُ لَهُمْ هٰذا؛ فَهُوَ تَأْوِيلٌ صَحِيحٌ فِي حَقِّ العُلَمَاءِ مِنْهُمْ: لَأَنَّا قَدْ رُوِّيْنَا عَنْ **سُفْيَانِ الثَّوْرِيِّ** أنّهُ قَدْ أَوْصَىٰ بِدَفْنِ كُتُبِهِ، وَكَانَ نَدِمَ علَىٰ أشياءَ كَتَبَهَا عَنْ

---

(١) أي: النهي عن الأكل فوق الشبع.

(٢) انظر: ما جاء في هذا في كنز العمال (٤٠٩٩٤ ـ ٤١١٠٠٩) و(٤١٨٠٢ ـ ٤١٨٠٦).

(٣) بشر بن الحارث المروزي، أبو نصر الحافي، الإمام العالم الزاهد (١٥٢ ـ ٢٢٧هـ).

(٤) الحديث هنا بمعناه اللغوي لا بمعناه الاصطلاحي، وسيرد بهذا المعنى في أكثر من موضع.

(٥) أحمد بن عبد الله بن ميمون الثعلبي الغطفاني، أبو الحسن، شيخ أهل الشام، إمام حافظ زاهد (١٦٤ ـ ٢٤٦هـ).

قوم، وَقَالَ: حَمَلَنِي شَهْوَةُ الحَدِيثِ. **وَهٰذَا لأَنَّهُ كَانَ يَكْتُبُ عَنِ الضُّعَفَاءِ والمَتْرُوكِينَ**، فَكَأَنَّهُ لمّا عَسُرَ عَلَيْهِ التَّمْيِيزُ؛ أَوْصَىٰ بِدَفْنِ الكُلِّ. وَكَذَلِكَ مَنْ كَانَ لَهُ رَأْيٌ مِنْ كَلَامِهِ، ثُمَّ رَجَعَ عَنْهُ، جَازَ أَنْ يَدْفِنَ الكُتُبَ الَّتِي فِيهَا ذٰلِكَ. فهٰذَا وَجْهُ التَّأْوِيلِ لِلْعُلَمَاءِ.

٧٦ ـ فَأَمَّا المُتَزَهِّدُونَ الَّذِينَ رَأَوْا صُورَةَ فِعْلِ العُلَمَاءِ، ودَفَنُوا كُتبًا صَالِحَةً، لِئلا تَشْغَلَهُمْ عَنِ التَّعَبُّدِ؛ فَإِنَّهُ جَهْلٌ مِنْهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ شَرَعُوا فِي إِطْفَاءِ مِصْبَاحٍ يُضِيءُ لَهُمْ، مَعَ الإِقْدَامِ عَلَىٰ تَضْيِيعِ مَالٍ لا يَحِلُّ [تَضْيِيعُهُ].

٧٧ ـ وَمِنْ جُمْلَةِ مَنْ عَمِلَ بِوَاقِعَةِ دَفْنِ كُتُبِ العِلْمِ يُوسُفُ بْنُ أَسْبَاطٍ[١]، ثُمَّ لَمْ يَصْبِرْ عَنِ التَّحْدِيثِ، فَخَلَّطَ، فَعُدَّ فِي الضُّعَفَاءِ.

أَنْبَأَنَا عَبْدُ الوَهَّابِ بْنِ المُبَارَكِ[٢]؛ قَالَ: أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ المُظَفَّرِ الشَّامِيُّ؛ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ العَتِيقِيُّ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا يُوسُفُ بْنُ أَحْمَدَ؛ قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو العُقَيْلِيُّ[٣]؛ قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عِيسَىٰ؛ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ خَالِدٍ الخَلَّالُ؛ قَالَ: سَمِعْتُ شُعَيْبَ بْنَ حَرْبٍ[٤] يَقُولُ: **قُلْتُ** لِيُوسُفَ بْنِ أَسْبَاطٍ: كَيْفَ صَنَعْتَ بِكُتُبِكَ؟ **قَالَ**: جِئْتُ إِلَىٰ الجَزِيرَةِ، فَلَمّا نَضَبَ المَاءُ دَفَنْتُهَا، حَتَّىٰ جَاءَ المَاءُ عَلَيْهَا فَذَهَبْتُ. **قُلْتُ**: مَا حَمَلَكَ عَلَىٰ ذٰلِكَ؟ **قَالَ**: أَرَدْتُ أَنْ يَكُونَ الهَمُّ هَمًّا واحدًا.

قَالَ العُقَيْلِيُّ: وَحَدَّثَنِي **آدَمُ**؛ قَالَ: سَمِعْتُ البُخَارِيَّ[٥]؛ قَالَ: قَالَ صَدَقَةُ: دَفَنَ يُوسُفُ بْنُ أَسْبَاطَ كُتُبَه، وَكَانَ بَعْدُ يَغْلِبُ عَلَيْهِ الوَهَمُ، فَلَا يَجِيءُ كَمَا يَنْبَغِي.

٧٨ ـ قَالَ **المُؤَلِّفُ**: قُلْتُ: الظَّاهِرُ أَنَّ هٰذِهِ كُتُبُ عِلْمٍ يَنْفَعُ، وَلٰكِنَّ قِلَّةَ العِلْمِ أَوْجَبَتْ هٰذَا التَفْرِيطَ، الَّذِي قُصِدَ بِهِ الخَيْرُ، وَهُوَ شَرٌّ؛ فَلَوْ كَانَتْ كُتُبُهُ مِنْ جِنْسِ كُتُبِ

---

(١) من سادات المشايخ، زاهد عابد، توفي سنة نيف وتسعين ومئة.

(٢) الأنماطي، أبو البركات، من شيوخ المؤلف، كان إمامًا حافظًا، عابدًا سريع الدمعة، دائم البشر (٤٦٢ ـ ٥٣٨هـ).

(٣) محمد بن عمرو بن موسى بن حماد، أبو جعفر، الإمام الحافظ الناقد، توفي سنة (٣٢٢هـ).

(٤) شيخ الإسلام، الإمام القدوة العابد، أبو صالح المدائني المجاور بمكة، توفي بها سنة (١٩٦هـ).

(٥) محمد بن إسماعيل إمام أهل الحديث صاحب الصحيح (١٩٤ ـ ٢٥٦هـ).

الثَّوْرِيِّ ـ فإنَّ فِيهَا عَنْ ضُعَفَاءَ، وَلَمْ يَصِحَّ لَهُ التَّمْيِيزُ ـ قَرُبَ الحَالُ، إنَّمَا تَعْلِيلُهُ بِجَمْعِ الهَمِّ، هُوَ الدَّلِيلُ عَلَىٰ أنَّهَا لَيْسَتْ كَذٰلِكَ، فَانْظرْ إلىٰ قِلّةِ العِلْمِ مَاذَا تُؤَثِّرُ مَعَ أَهْلِ الخَيْرِ!

٧٩ ـ وَلَقَدْ بَلَغنا فِي الحَدِيثِ عَنْ بَعْضِ مَنْ نُعَظِّمُهُ، وَنَزُورُهُ: أَنَّهُ كَانَ عَلَىٰ شَاطِئِ دِجْلَةَ، فَبَالَ، ثُمَّ تَيَمَّمَ! **فَقِيلَ لَهُ**: المَاءُ قَرِيبٌ مِنْكَ! **فَقَالَ**: خِفْتُ أَلّا أَبْلُغَهُ! وَهٰذَا، وَإِنْ كَانَ يَدُلُّ عَلَىٰ قِصَرِ الأَمَلِ؛ إلَّا أَنَّ الفُقَهَاءَ إذَا سَمِعُوا عَنْهُ مِثْلَ هٰذَا الحَدِيثَ؛ تَلَاعَبُوا بِهِ، مِنْ جِهَةِ أنَّ التَّيَمُّمَ إنَّمَا يَصِحُّ عِنْدَ عَدَمِ المَاءِ؛ فَإِذَا كَانَ الماءُ مَوْجُودًا؛ كَانَ تَحْرِيكُ اليَدَيْنِ بِالتَّيَمُّمِ عَبَثًا، وَلَيْسَ مِنْ ضَرُورةِ وُجُودِ المَاءِ أَنْ يَكُونَ إلَىٰ جَانِبِ المُحْدِثِ، بَلْ لَوْ كَانَ عَلَىٰ أَذْرُعٍ كَثِيرَةٍ؛ كَانَ مَوْجُودًا؛ فَلَا فِعْلَ لِلتَّيَمُّمِ، وَلَا أَثَرَ حِينئِذٍ.

٨٠ ـ وَمَنْ تَأَمَّلَ هٰذِهِ الأَشْيَاءَ؛ عَلِمَ أنَّ فَقِيهًا وَاحِدًا ـ وَإِنْ قَلَّ أَتْبَاعُهُ، وَخَفَّتْ إذَا مَاتَ أَشْيَاعُهُ ـ أَفْضَلُ مِنْ أُلُوفٍ تَتَمَسَّحُ العَوَامُّ بِهِمْ تبرُّكًا! وَيُشَيِّعُ جَنَائِزَهُمْ مَا لا يُحْصَىٰ.

وَهَلِ النّاسُ إلَّا صَاحِبُ أَثَرٍ يَتَّبِعُه، أَوْ فَقِيهٌ يَفْهَمُ مُرَادَ الشَّرْعِ، وَيُفْتِي بِهِ؟!

نعوذُ باللهِ مِنَ الجَهْلِ وَتَعْظِيمِ الأَسْلَافِ تَقْلِيدًا لَهُمْ بِغَيْرِ دَلِيلٍ، فَإِنَّ مَنْ وَرَدَ المَشْرَبَ الأَوَّلَ؛ رَأَىٰ سَائِرَ المَشَارِبِ كَدِرَةً.

٨١ ـ **والمِحْنَةُ العُظْمَىٰ مَدَائِحُ العَوَامّ؛ فَكَمْ غرَّتْ!** كَمَا قَالَ عَلِيٌّ ﷺ: ما أَبْقَىٰ خَفْقُ النِّعَالِ وَرَاءَ الحَمْقَىٰ مِنْ عُقُولِهِمْ شَيْئًا.

وَلَقَدْ رَأَيْنَا وَسَمِعْنَا مِنَ العَوَامّ أَنَّهُمْ يَمْدَحُونَ الشَّخْصَ، فَيَقُولُونَ: لا يَنَامُ اللَّيْلَ، وَلا يُفْطِرُ النَّهَارَ، وَلا يَعْرِفُ زَوْجَةً، وَلا يَذُوقُ مِنْ شَهَوَاتِ الدُّنيا شَيْئًا، قَدْ نَحَلَ جِسْمُهُ، وَدَقَّ عَظْمُهُ، حَتَّىٰ إنَّهُ يُصَلِّي قَاعِدًا؛ فَهُوَ خَيْرٌ مِنَ العُلَمَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ، وَيَتَمَتَّعُونَ! ذٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ العِلْمِ.

وَلَوْ [فَقِهُوا]؛ عَلِمُوا أَنَّ الدُّنيا لَوِ اجْتَمَعَتْ فِي لُقْمَةٍ، فَتَنَاوَلَهَا عَالِمٌ يُفْتِي عَنِ اللهِ، وَيُخْبِرُ بِشَرِيعَتِهِ؛ كَانَتْ فَتْوَىٰ وَاحِدَةٌ مِنْهُ، يُرْشِدُ بِهَا إلىٰ اللهِ تَعَالىٰ خيرًا وأفضلَ من عِبَادَةِ ذٰلِكَ العَابِدِ باقي عُمُرِهِ. وَقَدْ قَالَ ابنُ عَبّاسٍ ﷺ: فَقِيهٌ وَاحِدٌ أَشَدُّ عَلَىٰ إبْلِيسَ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ.

٨٢ ـ وَمَنْ سَمِعَ هٰذَا الكَلامَ؛ فَلَا يَظُنَّنَّ أَنَّنِي أَمْدَحُ مَنْ لا يَعْمَلُ بِعِلْمِهِ، وَإِنَّمَا أَمْدَحُ العَامِلِينَ بِالْعِلْمِ، وَهُمْ أَعْلَمُ بِمَصَالِحِ أَنْفُسِهِم؛ فَقَدْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ يَصْلُحُ عَلَىٰ خَشِنِ العَيْشِ؛ كَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَل، وَكَانَ فِيهِمْ مَنْ يَسْتَعْمِلُ رَقِيقَ العَيْشِ؛ كَسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ مَعَ وَرَعِهِ، وَمَالِكٍ مَعَ تَدَيُّنِهِ، وَالشَّافِعِيِّ مَعَ قُوَّةِ فقهِهِ.

وَلا يَنْبَغِي أَنْ يُطَالَبَ الإِنْسَانُ بِمَا يَقْوىٰ عَلَيْهِ غَيْرُهُ، فَيَضْعُفُ هُوَ عَنْهُ؛ فإنَّ الإِنْسَانَ أَعْرَفُ بِصَلَاحِ نَفْسِهِ، وَقَدْ قَالَتْ رَابِعَةُ[1]: إِنْ كَانَ صَلَاحُ قَلْبِكَ فِي الفَالُوذَج؛ فَكُلْهُ.

٨٣ ـ وَلا تَكُونَنَّ أَيُّهَا السَّامِعُ مِمَّنْ يَرَىٰ صُوَرَ الزُّهْدِ؛ فَرُبَّ مُتَنَعِّمٍ لا يُرِيدُ التَّنَعُّمَ، وَإِنَّمَا يَقْصِدُ المَصْلَحَةَ، وَلَيْسَ كُلُّ بَدَنٍ يَقْوَىٰ عَلَىٰ الخُشُونَةِ، خُصُوصًا مَنْ قَدْ لَاقَىٰ الكَدَّ، وَأَجْهَدَهُ الفِكْرُ، أو أَمَضَّهُ[2] الفَقْرُ؛ فَإِنَّهُ إِنْ لَمْ يَرْفُقْ بِنَفْسِهِ؛ تَرَكَ وَاجِبًا عَلَيْهِ مِنَ الرِّفْقِ [بِهَا].

فهٰذِهِ جُمْلَةٌ؛ لَوْ شَرَحْتُهَا بِذِكْرِ الأَخْبَارِ والمَنْقُولَاتِ لَطَالَتْ، غَيْرَ أَنِّي سَطَّرْتُهَا علَىٰ عَجَلٍ حِينَ جَالَتْ فِي خَاطِرِي. وَاللهُ وليُّ النَّفْعِ بِرَحْمَتِهِ.

٢٠ - فصل: أمر النفس وماهيتها

٨٤ ـ قَدْ أَشْكَلَ عَلَىٰ النَّاسِ أَمرُ النَّفْسِ[3] وَمَاهِيَّتُهَا[4]؛ مَعَ إِجْمَاعِهِمْ عَلَىٰ وُجُودِهَا، وَلَا يَضُرُّ الجَهْلُ بِذَاتِهَا مَعَ إِثْبَاتِهَا.

٨٥ ـ ثُمَّ أَشْكَلَ عَلَيْهِمْ مَصِيرُهَا بَعْدَ المَوْتِ، ومَذْهَبُ أَهْلِ الحَقِّ أَنَّ لَهَا وُجُودًا بَعْدَ مَوْتِهَا، وَأَنَّهَا تُنَعَّمُ وَتُعَذَّبُ، قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَل: أَرْوَاحُ المُؤْمِنِينَ فِي الجَنَّةِ، وَأَرْوَاحُ الكُفَّارِ فِي النَّارِ.

وَقَدْ جَاءَ فِي أَحَادِيثِ الشُّهَدَاءِ: «**أَنَّهَا فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَعْلَقُ مِنَ**

---

(١) رابعة بنت إسماعيل العدوية البصرية، أم عمرو الزاهدة الخاشعة العابدة، عاشت ثمانين سنة، توفيت سنة (١٨٠هـ).

(٢) **أمضّه**: آلمه، وشق عليه.

(٣) **النفس**: الروح.

(٤) **ماهيتها**: حقيقتها وجوهرها.

شَجَرِ الجَنَّةِ»[1].

٨٦ ـ وَقَدْ أَخَذَ بَعْضُ الجَهَلَةِ بِظَوَاهِرِ أَحَادِيثِ النَّعِيمِ؛ فَقَالَ: إِنَّ المَوْتَىٰ يَأْكُلُونَ فِي القُبُورِ وَيَنْكِحُونَ، والصَّوَابُ مِنْ ذٰلِكَ: أَنَّ النَّفْسَ تَخْرُجُ بَعْدَ المَوْتِ إِلىٰ نَعِيمٍ أَوْ عَذَابٍ، وَأَنَّهَا تَجِدُ ذٰلِكَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ فَإِذَا كَانَتِ القِيَامَةُ؛ أُعِيدَتْ إِلَىٰ الجَسَدِ؛ لِيَتَكَامَلَ لَهَا التَّنَعُّمُ بِالْوَسَائِطِ.

٨٧ ـ وَقَوْلُهُ: «**فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضْرٍ**» دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ النُّفوسَ لا تَنَالُ لَذَّةً إِلاَّ بِوَاسِطَةٍ؛ [إِنْ كَانَتْ][2] تِلْكَ اللَّذَّةُ لَذَّةَ مَطْعَمٍ أَوْ مَشْرَبٍ، فَأَمَّا لَذَّاتُ المَعَارِفِ وَالْعُلُومِ؛ فَيَجُوزُ أَنْ تَنَالَهَا بِذَاتِهَا مَعَ عَدَمِ الوَسَائِطِ.

٨٨ ـ وَالمَقْصُودُ مِنْ هٰذَا المَذْكُورِ أَنِّي رَأَيْتُ بَعْضَ الانْزِعَاجِ مِنَ المَوْتِ، وَمُلَاحَظَةَ النَّفْسِ بِعَيْنِ العَدَمِ عِنْدَهُ، **فَقُلْتُ لَهَا**: إِنْ كُنْتِ مُصَدِّقَةً للشَّرِيعَةِ؛ فَقَدْ أُخْبِرْتِ بِمَا تَعْرِفِينَ، وَلَا وَجْهَ لِلإِنْكَارِ، وَإِنْ كَانَ هُنَاكَ رَيْبٌ فِي أَخْبَارِ الشَّرِيعَةِ؛ صَارَ الكَلَامُ فِي بَيَانِ صِحَّةِ الشَّرِيعَةِ، **فَقَالَتْ**: لا رَيْبَ عِنْدِي. **قُلْتُ**: فاجْتَهِدِي فِي تَصْحِيحِ الإِيْمَانِ، وَتَحْقِيقِ التَّقْوَىٰ، وَأَبْشِرِي حِينَئِذٍ بِالرَّاحَةِ مِنْ سَاعَةِ المَوْتِ؛ فَإِنِّي لا أَخَافُ عَلَيْكِ إِلَّا مِنَ التَّقْصِيرِ فِي العَمَلِ. واعْلَمِي أَنَّ تَفَاوُتَ النَّعِيمِ بِمِقْدَارِ دَرَجَاتِ الفَضَائِلِ؛ فارْتَفِعِي بِأَجْنِحَةِ الجِدِّ إِلىٰ أَعْلَىٰ أَبْرَاجِها، وَاحْذَرِي مِنْ قَانِصٍ[3] هَوًىٰ، أَوْ شَرَكِ غِرَّةٍ[4]، والله الموفق.

٢١ - فصل: تكليف البدن وتكليف العقل

٨٩ ـ **قُلْتُ يَوْمًا فِي مَجْلِسِي**: لَوْ أَنَّ الجِبَالَ حَمَلَتْ مَا حُمِّلْتُ؛ لَعَجَزَتْ، فلمّا عُدْتُ إِلىٰ مَنْزِلِي؛ **قَالَتْ لِي النَّفْسُ**: كَيْفَ قُلْتَ هٰذَا؛ وَرُبَّمَا أَوْهَمَ النَّاسَ أَنَّ بِكَ بلاءً، وأنتَ في عافِيَةٍ فِي نَفْسِكَ وَأَهْلِكَ؟! وَهَلِ الَّذِي حُمِّلْتَ إِلَّا التَّكْلِيفُ الَّذِي يَحْمِلُهُ الخَلْقُ كُلُّهُمْ؟! فَمَا وَجْهُ هٰذِهِ الشَّكْوَىٰ؟!

---

(١) رواه النسائي (٢٠٧٣)، والترمذي (١٦٤١) عن كعب بن مالك رضي الله عنه.

(٢) في الأصل: إلا أن.

(٣) **القانص**: الصياد.

(٤) **الغرة**: الغفلة.

فَأَجَبْتُهَا: إنِّي لَمّا عَجَزْتُ عَمَّا حُمِّلْتُ؛ قُلْتُ هٰذِهِ الكَلِمَةَ، لا علىٰ سَبِيْلِ الشَّكْوَىٰ، وَلٰكِنْ للاسْتِرْوَاحِ، وَقَدْ قَالَ كَثيرٌ مِنَ الصَّحَابَةِ والتَّابِعِينَ قَبْلِي: **لَيْتَنَا لَمْ نُخْلَقْ!** وَمَا ذَاكَ إلَّا لِأَثْقَالٍ عَجَزُوا عَنْهَا، ثُمَّ مَنْ ظَنَّ أَنَّ التَّكَالِيفَ سَهْلَةٌ فَمَا عَرَفَهَا.

أَتُرَىٰ يَظُنُّ الظَّانُّ أَنَّ التَّكَالِيفَ غَسْلُ الأَعْضَاءِ بِرِطْلٍ مِنَ المَاءِ، أَوْ الوُقُوفُ فِي مِحْرَابٍ لِأَدَاءِ رَكْعَتَيْنِ؟! هَيْهَات! هٰذا أَسْهَلُ التَّكْلِيفِ!

وَإِنَّ التَّكْلِيفَ هُوَ الّذِي عَجَزَتْ عَنْهُ الجِبَالُ، وَمِنْ جُمْلَتِهِ: أَنَّنِي إِذَا رَأَيْتُ القَدَرَ يَجْرِي بِمَا لا يَفْهَمُهُ العَقْلُ؛ أَلْزَمْتُ العَقْلَ الإِذْعَانَ لِلْمُقَدِّرِ، فَكَانَ مِنْ أَصْعَبِ التَّكْلِيفِ، وَخُصُوصًا فِيمَا لا يَعْلَمُ العَقْلُ مَعْنَاهُ؛ كَإِيلَامَ الأَطْفَالِ، وَذَبْحِ الحَيَوَانِ؛ مَعَ الاعْتِقَادِ بِأَنَّ المُقَدِّرَ لِذٰلِكَ؛ وَالآمِرَ بِهِ أَرْحَمُ الرَّاحِمِيْنَ؛ فَهٰذَا مِمّا يَتَحَيَّرُ العَقْلُ فِيهِ، فَيَكُونُ تَكْلِيفُهُ التَّسْلِيمَ وَتَرْكَ الاعْتِرَاضِ، فَكَمْ بَيْنَ تَكْلِيفِ البَدَنِ وَتَكْلِيفِ العَقْلِ!

وَلَوْ شَرَحْتُ هٰذَا لَطَالَ؛ غَيْرَ أَنِّي أَعْتَذِرُ عَمّا قُلْتُهُ، فَأَقُولُ عَنْ نَفْسِي ـ وَمَا يَلْزَمُنِي حَالُ غَيْرِي ـ: إنني رَجُلٌ حُبِّبَ إِلَيَّ العِلْمُ مِنْ زَمَنِ الطُّفُولَةِ، فَتَشَاغَلْتُ بِهِ، ثُمَّ لَمْ يُحَبَّبْ إِلَيَّ فَنٌّ وَاحدٌ مِنْهُ، بَلْ فُنُونُه كُلُّها، ثُمَّ لا تَقْتَصِرُ هِمَّتِي فِي فَنٍّ عَلَىٰ بَعْضِهِ، بَلْ أَرُوْمُ اسْتِقْصَاءَه، وَالزَّمَانُ لا يَسَعُ، والعُمُرُ أَضْيَقُ، والشَّوْقُ يَقْوَىٰ، والعَجْزُ يَظْهَرُ[1]، فَيَبْقَىٰ وُقُوفُ بَعْضِ المَطْلُوبَاتِ حَسَرَاتٍ.

٩٠ ـ ثُمَّ إِنَّ العِلْمَ دَلَّنِي عَلىٰ مَعْرِفَةِ المَعْبُودِ، وَحَثَّنِي عَلىٰ خِدْمَتِهِ، ثُمَّ صَاحَتْ بِي الأَدِلَّةُ عَلَيْهِ إِلَيْهِ، فَوَقَفْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَرَأَيْتُهُ فِي نَعْتِهِ، وَعَرَفْتُهُ بِصِفَاتِهِ، وَعَايَنَتْ بَصِيرَتِي مِنْ أَلْطَافِهِ مَا دَعَانِي إِلَىٰ الهَيَمَانِ[2] فِي مَحَبَّتِهِ، وَحَرَّكَنِي إِلىٰ التَّخَلِّي لِخِدْمَتِهِ، وَصَارَ يَمْلِكُنِي أَمرٌ كَالْوَجْدِ، كُلَّمَا ذَكَرْتُهُ، فَعَادَتْ خَلْوَتِي فِي خِدْمَتِي لَهُ أَحْلَىٰ عِنْدِي مِنْ كُلِّ حَلَاوَةٍ.

٩١ ـ فَكُلَّمَا مِلْتُ إِلَىٰ الانْقِطَاعِ عَنِ الشَّوَاغِلِ إِلَىٰ الخَلْوَةِ؛ **صَاحَ بِي العِلْمُ**: أَيْنَ تَمْضِي؟! أَتُعْرِضُ عَنِّي، وَأَنا سَبَبُ مَعْرِفَتِكَ بِهِ؟! **فَأَقُولُ لَهُ**: إِنَّما كُنْتَ دَلِيلًا، وَبَعْدَ

---

(١) في حاشية الأصل: في الأحمدية: يقعد، قلت: يظهر: يغلب.

(٢) **الهيمان**: الشغف.

الوُصُولِ يُسْتَغْنَىٰ عَنِ الدَّلِيلِ. **قَالَ**: هَيْهَاتَ! كُلَّمَا زِدْتَ؛ زَادَتْ مَعْرِفَتُكَ لِمَحْبُوبِكَ، وَفَهِمْتَ كَيْفَ القُرْبُ مِنْهُ. وَدَلِيلُ هٰذَا: أَنَّكَ تَعْلَمُ غَدًا أَنَّكَ اليَوْمَ فِي نُقْصَانٍ. أَوَمَا تَسْمَعُهُ يَقُولُ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]؟!

٩٢ ـ ثُمَّ أَلَسْتَ تَبْغِي القُرْبَ مِنْهُ؟! فَاشْتَغِلْ بِدِلَالَةِ عِبَادِهِ عَلَيْهِ؛ فَهِيَ حَالاتُ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ! أما علمتَ أنَّهم آثروا تعليم الخَلْق علىٰ خَلَوات التعبُّد؛ لعلمِهم أنَّ ذٰلك آثرُ عند حبيبهم؟! أما قال الرسول ﷺ لعليٍّ رضي الله عنه: «**لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بكَ رَجُلًا خَيْرٌ لك مِنْ حُمْرِ النَّعَم**»[(١)]؟!

فَلَمَّا فَهِمْتُ صِدْقَ هٰذِهِ المَقَالَةِ؛ تَهَوَّسْتُ عَلَىٰ تِلْكَ الحَالَةِ[(٢)]، وَكُلَّمَا تَشَاغَلْتُ بِجَمْعِ النَّاسِ؛ تَفَرَّقَ هَمِّي[(٣)]، وَإِذَا وَجَدْتُ مُرَادِي مِنْ نَفْعِهِمْ؛ ضَعُفْتُ أنا، فَأَبْقَىٰ فِيْ حَيِّزِ التَّحَيُّرِ مُتَرَدِّدًا، لا أَدْرِي عَلَىٰ أَيِّ القَدَمَيْنِ أَعْتَمِدُ؟

٩٣ ـ فَإِذَا وَقَفْتُ مُتَحَيِّرًا؛ صَاحَ العِلْمُ: قُمْ لِكَسْبِ العِيَالِ، وَاذْأَبْ فِي تَحْصِيلِ وَلَدٍ يَذْكُرُ اللهَ، فَإِذَا شَرَعْتُ فِي ذٰلِكَ؛ قَلَصَ ضَرْعُ[(٤)] الدُّنْيَا وَقْتَ الحَلْبِ، وَرَأَيْتُ بَابَ المَعَاشِ مَسْدُودًا فِي وَجْهِي؛ لأَنَّ صِنَاعَةَ العِلْمِ شَغَلَتْنِي عَنْ تَعَلُّمِ صِنَاعَةٍ.

٩٤ ـ فَإِذَا الْتَفَتُّ إِلَىٰ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا؛ رَأَيْتُهُمْ لا يَبِيعُونَ شَيْئًا مِنْ سِلَعِهَا إِلَّا بِدِيْنِ المُشْتَرِيْ! أو لَيْتَ مَنْ نَافَقَهُمْ أَوْ رَاءَاهُمْ نَالَ مِنْ دُنْيَاهُمْ، بَلْ رُبَّمَا ذَهَبَ دِينُهُ، وَلَمْ يُحَصِّلْ مُرَادَهُ!!

فَإِنْ قَالَ الضَّجَرُ: اهْرُبْ! **قَالَ الشَّرْعُ**: «**كَفَىٰ بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ**»[(٥)]، **وإِنْ قَالَ العزمُ**: انفردْ! **قال**: فكيفَ بِمَنْ تَعولُ؟!

٩٥ ـ فَغَايَةُ الأَمْرِ أَنَّنِي أَشْرَعُ فِي التَّقَلُّلِ مِنَ الدُّنْيَا؛ وقَدْ رُبِّيْتُ فِي نَعِيمِهَا، وَغُذِّيْتُ بِلِبَانِهَا[(٦)]، وَلَطُفَ مِزَاجِي فَوْقَ لُطْفِ وَضْعِهِ بِالْعَادَةِ، فَإِذَا غَيَّرتُ لِبَاسِي،

---

(١) رواه البخاري (٣٧٠١)، ومسلم (٢٤٠٦)، عن سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٢) **تهوست على تلك الحالة**: أي بقيت أحدّث نفسي.

(٣) **تفرق همي**: فترت عزيمتي.

(٤) **قلص الضرع**: انقبض ولم يحلب.

(٥) رواه مسلم (٩٩٦)، وأبو داود (١٦٩٢) واللفظ له عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٦) **بلبانها**: بالرضاع منها، حيث شبه الدنيا بأمه، أي: تعوّد على نعيمها من صغره.

وَخَشَّنْتُ مَطْعَمِي؛ لأَنَّ القُوْتَ لا يَحْتَمِلُ الانْبِسَاطَ[1] نَفَرَ الطَّبْعُ لِفِرَاقِ العَادَةِ، فَحَلَّ المَرَضُ، فَقَطَعَ عَنْ وَاجِبَاتٍ، وَأَوْقَعَ فِي آفَاتٍ! وَمَعْلُومٌ أَنَّ لِينَ اللُّقْمَةِ بَعْدَ التَّحْصِيلِ مِنَ الوُجُوهِ المُسْتَطَابَةِ، ثُمَّ تَخْشِينَهَا لِمَنْ لَمْ يَأْلَفْ سَعْيٌ فِي تَلَفِ النَّفْسِ. **فَأَقُولُ**: كَيْفَ أَصْنَعُ؟! وَمَا الَّذِي أَفْعَلُ؟! وَأَحْلُو بِنَفْسِي فِي خَلَوَاتِي، وَأَتَزَيَّدُ مِنَ الْبُكَاءِ عَلَىٰ نَقْصِ حَالاتِي، **وَأَقُولُ**: أَصِفُ حَالَ العُلَمَاءِ؛ وَجِسْمِي يَضْعُفُ عَنْ إِعَادَةِ العِلْمِ!! وَحَالَ الزُّهادِ؛ وَبَدَنِي لا يَقْوَىٰ عَلَىٰ الزُّهْدِ!! وَحَالَ المُحِبِّينَ؛ وَمُخَالَطَةُ الخَلْقِ تُشَتِّتُ هَمِّي، وَتَنْقُشُ صُوَرَ المَحْبُوبَاتِ مِنَ الهَوَىٰ فِي نَفْسِي، فَتَصْدَأُ مِرْآةُ قَلْبِي!! **وَشَجَرَةُ المَحَبَّةِ تَحْتَاجُ إِلَىٰ تَرْبِيَةٍ فِي تُرْبَةٍ طَيِّبَةٍ تُسْقَىٰ مَاءَ الخَلْوَةِ مِنْ دُولَابِ الفِكْرَةِ.**

وَإِنْ آثَرْتُ التَّكَسُّبَ؛ لَمْ أُطِقْ، وَإِنْ تَعَرَّضْتُ لِأَبْنَاءِ الدُّنْيَا؛ مَعَ أَنَّ طَبْعِيَ الأَنَفَةَ مِنَ الذُّلِّ، وَتَدَيُّنِي يَمْنَعُنِي؛ فَلا يَبْقَىٰ لِلمَيْلِ مَعَ هٰذَيْنِ الجَاذِبَيْنِ أَثَرٌ! وَمُخَالَطَةُ الخَلْقِ يُؤْذِي النَّفْسَ مَعَ الأَنْفَاسِ؛ فَلَا تَحْقِيقَ التَّوْبَةِ أَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَلا نَيْلَ مَرْتَبَةٍ مِنْ عِلْمٍ أَوْ عَمَلٍ أَوْ مَحَبَّةٍ يَصِحُّ لِيْ.

فَإِذَا رَأَيْتَنِي كَمَا قَالَ القَائِلُ:

أَلْقَاهُ فِي الْيَمِّ مَكْتُوفًا وَقَالَ لَهُ ... إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَبْتَلَّ بِالْمَاءِ

تَحَيَّرْتُ فِي أَمْرِي، وَبَكَيْتُ عَلَىٰ عُمُرِي، وَأُنَادِيْ فِي فَلَوَاتِ خَلَوَاتِي بِمَا سَمِعْتُهُ مِنْ بَعْضِ العَوَامِّ، وَكَأَنَّهُ وَصْفُ حَالِي:

وَا حَسْرَتِي كَمْ أُدَارِيْ فِيكَ تَعْثِيرِي ... مِثْلَ الأَسِيرِ بِلا حَيْلٍ وَلا سَيْرِ

مَا حِيلَتِي فِي الهَوَىٰ قَدْ ضَاعَ تَدْبِيرِي ... لَمَّا شَكَلْتَ جَنَاحِي قُلْتَ لِي طِيْرِي[2]

٢٢ - فصل: حوادث الدنيا وحوادث الآخرة

٩٦ ـ تَأَمَّلْتُ أَمْرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، فَوَجَدْتُ حَوَادِثَ الدُّنيا حِسِّيَّةً طَبعِيَّةً وَحَوَادِثَ الآخِرَةِ إيمانيَّةً يقينيَّةً. والحِسِّياتُ أَقْوَىٰ جَذْبًا لِمَنْ لَمْ يَقْوَ عِلْمُهُ وَيَقِينُهُ.

---

(١) **الانبساط**: الزيادة في الإنفاق. (٢) **شكل الجناح**: ربطه.

٩٧ ـ وَالْحَوَادِثُ إِنَّمَا تَبْقَىٰ بِكَثْرَةِ أَسْبَابِهَا: فَمُخَالَطَةُ النَّاسِ، وَرُؤْيَةُ الْمُسْتَحْسَنَاتِ، وَالتَّعَرُّضُ بِالْمَلْذُوْذَاتِ؛ يُقَوِّي حَوَادِثَ الحِسِّ.

والعُزْلَةُ والفِكْرُ، والنَّظَرُ فِي العِلْمِ؛ يُقَوِّي حَوَادِثَ الآخِرَةِ.

وَيُبَيِّنُ هٰذَا: بأنَّ الإِنْسَانَ إِذَا خَرَجَ يَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ، وَيُبْصِرُ زِينَةَ الدُّنْيَا، ثُمَّ دَخَلَ إِلَىٰ المَقَابِرِ، فَتَفَكَّرَ، وَرَقَّ قَلْبُهُ، فَإِنَّهُ يُحِسُّ بَيْنَ الحَالَتَيْنِ فرقًا بَيِّنًا، وَسَبَبُ ذٰلِكَ التَّعَرُّضُ بِأَسْبَابِ الحَوَادِثِ.

٩٨ ـ فَعَلَيْكَ بِالْعُزْلَةِ، والذِّكْرِ، والنَّظَرِ فِي العِلْمِ؛ فَإِنَّ العُزْلَةَ حِمْيَةٌ، والفِكْرَ والعِلْمَ أدويةٌ، والدَّوَاءُ مَعَ التَّخْلِيطِ لا يَنْفَعُ، وَقَدْ تَمكَّنَتْ مِنْكَ أخلاطُ[1] المُخَالَطَةِ لِلْخَلْقِ، والتَّخْلِيطُ[2] فِي الأَفْعَالِ؛ فَلَيْسَ لَكَ دواءٌ إِلَّا مَا وَصَفْتُ لَكَ.

فَأَمَّا إِذَا خَالَطْتَ الخَلْقَ، وَتَعَرَّضْتَ لِلشَّهَوَاتِ، ثُمَّ رُمْتَ[3] صَلاحَ القَلْبِ؛ رُمْتَ المُمْتَنِعَ.

٢٣ - فصل: النفس لا تصبر على الحصر

٩٩ ـ **تَأَمَّلْتُ** حِرْصَ النَّفْسِ عَلَىٰ مَا مُنِعَتْ مِنْهُ، فَرَأَيْتُ حِرْصَهَا يَزِيدُ عَلَىٰ قَدْرِ قُوَّةِ المَنْعِ.

ورأيتُ في السَّرْبِ[4] الأوَّلِ: أنَّ **آدَمَ** عليه السلام لَمَّا نُهِيَ عَنِ الشَّجَرَةِ؛ حَرَصَ عَلَيْهَا مَعَ كَثْرَةِ الأَشْجَارِ المُغْنِيَةِ عَنْهَا.

وفِي الأَمْثَالِ: المَرْءُ حَرِيصٌ عَلَىٰ مَا مُنِعَ، وَتَوَّاقٌ إِلَىٰ مَا لَمْ يَنَلْ. وَيُقَالُ: لَوْ أُمِرَ النَّاسُ بِالْجُوعِ؛ لَصَبَرُوا، وَلَوْ نُهُوا عَنْ تَفْتِيتِ البَعْرِ؛ لَرَغِبُوا فِيهِ، وَقَالُوا: ما نُهِيْنَا عَنْهُ إِلَّا لِشَيْءٍ. وَقَدْ قِيلَ:

..... **أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَىٰ الإِنْسَانِ مَا مُنِعَا**

---

(١) **أخلاط**: أدواء وأمراض.

(٢) **التخليط**: فعل الحسن والقبيح، وعدم التمييز بينهما.

(٣) **رمت**: قصدت.

(٤) **السرب**: يقصد المؤلف به القَرْن أو الجيل من الناس.

١٠٠ ـ فَلَمَّا بَحَثْتُ عَنْ سَبَبِ ذٰلِكَ؛ وَجَدْتُ سَبَبَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: **أَنَّ النَّفْسَ لا تَصْبِرُ عَلَىٰ الحَصْرِ**؛ فَإِنَّهُ يَكْفِي حَصْرُهَا فِي صُورَةِ البَدَنِ[1]؛ فَإِذَا حُصِرَتْ فِي المَعْنَىٰ بِمَنْعٍ؛ زَادَ طَيْشُهَا، وَلِهٰذَا لَوْ قَعَدَ الإِنْسَانُ فِي بَيْتِهِ شَهْرًا؛ لَمْ يَصْعُبْ عَلَيْهِ، وَلَوْ قِيلَ لَهُ: لَا تَخْرُجْ مِنْ بَيْتِكَ يومًا، طال عليه.

والثاني: **أَنَّهَا يَشُقُّ عَلَيْهَا الدُّخُولُ تَحْتَ حُكْمٍ**، ولهٰذا تَسْتَلِذُّ الحَرَامَ، ولا تَكَادُ تَسْتَطِيبُ المُبَاحَ. وَلِذٰلِكَ يَسْهُلُ عَلَيْهَا التَّعَبُّدُ عَلَىٰ مَا تَرَىٰ وَتُؤْثِرُ، لَا عَلَىٰ مَا يُؤْثَرُ.

٢٤ - فصل: العزلة عن الشر لا عن الخير

١٠١ ـ مَا زَالَتْ نَفْسِي تُنَازِعُنِي ـ بِمَا يُوجِبُهُ مَجْلِسُ الوَعْظِ، وَتَوْبَةُ التَّائِبِيْنَ، وَرُؤْيَةُ الزَّاهِدِينَ ـ إِلَىٰ الزُّهْدِ، والانْقِطَاعِ عَنِ الخَلْقِ، والانْفِرَادِ بِالآخِرَةِ، فَتَأَمَّلْتُ ذٰلِكَ، فَوَجَدْتُ عُمُومَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَرَىٰ أَنَّهُ لا يَخْلُوْ لِيْ مَجْلِسٌ مِنْ خَلْقٍ لا يُحْصَوْنَ، يَبْكُونَ، وَيَنْدُبُونَ عَلَىٰ ذُنُوبِهِمْ، وَيَقُومُ فِي الغَالِبِ جَمَاعَةٌ، يَتُوبُونَ، وَيَقْطَعُونَ شَعُورَ الصِّبَا، وَرُبَّمَا اتَّفَقَ خَمْسُونَ[2] ومئةٌ، وَلَقَدْ تَابَ عَنْدِي فِي بَعْضِ الأَيَّامِ أَكْثَرُ مِنْ مئةٍ، وَعُمُومُهُمْ صِبْيَانٌ، قَدْ نَشَؤُوْا عَلَىٰ اللَّعِبِ والانهِمَاكِ فِي المَعَاصِي.

١٠٢ ـ فَكَأَنَّ الشَّيْطَانَ ـ لِبُعْدِ غوْرِهِ فِي الشَّرِّ ـ رَآنِي أَجْتَذِبُ إِليَّ مَنْ أَجْتَذِبُ مِنْهُ، فَأَرَادَ أَنْ يَشْغَلَنِي عَنْ ذٰلِكَ بِمَا يُزَخْرِفُهُ؛ لِيَخْلُوَ هُوَ بِمَنْ أَجْتَذِبُهُ مِنْ يَدِهِ.

وَلَقَدْ حَسَّنَ لِيَ الانْقِطَاعَ عَنِ المَجَالِسِ، **وَقَالَ**: لا يَخْلُوْ مِنْ تَصَنُّعٍ لِلْخَلْقِ. **فَقُلْتُ**: أَمَّا زَخْرَفَةُ الأَلْفَاظِ وَتَزْوِيقُهَا، وَإِخْرَاجُ المَعْنَىٰ مِنْ مُسْتَحْسَنِ العِبَارَةِ؛ فَفَضِيلَةٌ لا رَذِيلَةٌ، وأَمَّا أَنْ أقصِدَ النَّاسَ بِمَا لا يَجُوزَ فِي الشَّرْعِ؛ فَمَعَاذَ اللهِ.

١٠٣ ـ ثُمَّ رَأَيْتُهُ يُرِيْنِي فِي التَّزَهُّدِ قَطْعَ أَسْبَابٍ ظَاهِرَةِ الإِبَاحَةِ مِنَ الاكْتِسَابِ! **فَقُلْتُ لَهُ**: فَإِنْ طَابَ لِيَ الزُّهْدُ، وَتَمَكَّنْتُ مِنَ العُزْلَةِ، فَنَفِدَ مَا بِيَدِيْ، أَوِ احْتَاجَ بَعْضُ عَائِلَتِي؛ أَلَسْتُ أَعُوْدُ القَهْقَرَىٰ؟! فَدَعْنِي أَجْمَعُ مَا يَسُدُّ خَلَّتِي، وَيَصُوْنُنِي عَنْ مَسْأَلَةِ

---

(١) في الأصل: في البدن صورةً.

(٢) في الأصل: خمسين.

النَّاسِ؛ فَإِنْ مُدَّ عُمُرِي؛ كَانَ نِعْمَ السَّبَبُ، وَإِلَّا؛ كَانَ لِلْعَائِلَةِ، وَلا أَكُونُ كَرَاكِبٍ أَرَاقَ مَاءَهُ لِرُؤْيَةِ سَرَابٍ، فَلَمَّا نَدِمَ وَقْتَ الفَوَاتِ؛ لَمْ يَنْتَفِعْ بِالنَّدَمِ. وَإِنَّمَا الصَّوَابُ تَوْطِئَةُ المَضْجَعِ قَبْلَ النَّومِ، وَجَمْعُ المَالِ السَّادِّ لِلْخَلَّةِ قَبْلَ الكِبَرِ؛ أَخذًا بِالْحَزْمِ؛ وَقَدْ قَالَ الرَّسُولُ ﷺ: «**لأَنْ تَتْرُكَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَتْرُكَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ**»[1]، وَقَالَ: «**نِعْمَ المَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ**»[2].

١٠٤ ـ وَأَمَّا الانْقِطَاعُ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ العُزْلَةُ عَنْ الشَّرِّ لا عَنِ الخَيْرِ، **والعُزْلَةُ عَنِ الشَّرِّ وَاجِبَةٌ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ**، وأَمَّا تَعْلِيمُ الطَّالِبِينَ، وَهِدَايَةُ المُرِيدِينَ؛ فَإِنَّهُ عِبَادَةُ العَالِمِ.

١٠٥ ـ وَإِنَّ مِنْ تَفْضِيلِ بَعْضِ العُلَمَاءِ إِيثَارَهُ لِلتَّنَفُّلِ بِالصَّلَاةِ والصَّوْمِ عَنْ تَصْنِيفِ كِتَابٍ، أَوْ تَعْلِيمِ عِلْمٍ يَنْفَعُ؛ لأَنَّ ذٰلِكَ بَذْرٌ يَكْثُرُ رَيْعُهُ، وَيَمْتَدُّ زَمَانُ نَفْعِهِ.

١٠٦ ـ وَإِنَّمَا تَمِيلُ النَّفْسُ إِلَىٰ مَا يُزَخْرِفُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ ذٰلِكَ لِمَعْنَيَيْنِ: أَحَدُهُمَا: **حُبُّ البَطَالَةِ**؛ لِأَنَّ الانْقِطَاعَ عِنْدَهَا أَسْهَلُ. وَالثَّانِي: **لحُبِّ المِدْحَةِ**؛ فَإِنَّهَا إذا تَوَسَّمَتْ بِالزُّهْدِ؛ كَانَ مَيْلُ العَوَامِّ إِلَيْهَا أَكْثَرُ.

١٠٧ ـ فَعَلَيْكَ بِالنَّظَرِ فِي السِّرْبِ الأَوَّلِ، فَكُنْ مَعَ السَّرْبِ المُتَقَدِّم، وَهُمْ الرَّسُولُ ﷺ وَأَصْحَابُهُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ، فَهَلْ نُقِلَ عَنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَا ابْتَدَعَهُ جَهَلَةُ المُتَزَهِّدِينَ والمتصوِّفَةُ، من الانقطاعِ عنِ العلمِ؟ والانفرادِ عنِ الخَلْقِ. وهل كانَ شُغْلُ الأنبياءِ إلّا معاناةَ الخَلْقِ؟ وَحَثَّهم عَلَىٰ الخَيْرِ، وَنَهْيَهُمْ عَن الشَّرِّ؟!

إِلَّا أَنْ يَنْقَطِعَ مَنْ لَيْسَ بِعَالِمٍ بِقَصْدِ الكَفِّ عَنِ الشَّرِّ؛ فَذَاكَ مَرْتَبَةُ المُحْتَمِي، يَخَافُ شَرَّ التَّخْلِيطِ[3]؛ فَأَمَّا الطَّبِيبُ العَالِمُ بِمَا يَتَنَاوَلُ؛ فَإِنَّهُ يَنْتَفِعُ بِمَا يَنَالُهُ.

٢٥ - فصل: المقصود من العلم العمل

١٠٨ ـ **تَأَمَّلْتُ** المُرادَ مِنَ الخَلْقِ؛ فَإِذَا هُوَ الذُّلُّ، واعْتِقَادُ التَّقْصِيرِ والعَجْزِ.

---

(١) رواه البخاري (٥٣٥٤)، ومسلم (١٦٢٨) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٢) رواه أحمد (٤/ ١٩٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٩٩) عن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٣) **التخليط**: الإفساد.

١٠٩ ـ ومَثَّلْتُ العُلَمَاءَ والزُّهَّادَ العَامِلِيْنَ صِنْفَيْنِ: فَأَقَمْتُ فِي **صَفِّ العُلَمَاءِ**: مَالِكًا، وَسُفْيَانَ، وَأَبَا حَنِيفَةَ، والشَّافِعِيَّ، وَأَحْمَدَ. وفي **صفِّ العُبَّادِ**: مَالِكَ بْنَ دِينارٍ، وَرَابِعَةَ، وَمَعْرُوفًا الكَرْخِيَّ[١]، وَبِشْرَ بنَ الحَارِثِ.

١١٠ ـ فَكُلَّمَا جَدَّ العُبَّادُ فِي العِبَادَةِ؛ صَاحَ بِهِمْ لِسَانُ الحَالِ: عِبَادَاتُكُمْ لا يَتَعَدَّاكُمْ نَفْعُهَا، وَإِنَّمَا يَتَعَدَّىٰ نَفْعُ العُلَمَاءِ، وَهُمْ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَخُلَفَاءُ اللهِ فِي الأَرْضِ، وَهُمُ الَّذِينَ عَلَيْهِمُ المُعَوَّلُ، وَلَهُمْ الفَضْلُ إِذَا أَطْرَقُوا وانْكَسَرُوا، وَعَلِمُوا صِدْقَ تِلْكَ الحَالِ.

وَجَاءَ **مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ** إِلَىٰ **الحَسَنِ**، يَتَعَلَّمُ مِنْهُ، وَيَقُولُ: **الحَسَنُ** أُسْتَاذُنَا.

١١١ ـ وَإِذَا رَأَىٰ العُلَمَاءُ أَنَّ لَهُمْ بِالْعِلْمِ فَضْلًا؛ صَاحَ لِسَانُ الحَالِ بِالْعُلَمَاءِ: وَهَلِ المُرَادُ مِنَ العِلْمِ إِلَّا العَمَلُ؟!

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلَ: وَهَلْ يُرَادُ بِالْعِلْمِ إِلَّا مَا وَصَلَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ؟!

وَصَحَّ عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ؛ قَالَ: وَدِدْتُ أَنَّ يَدِيْ قُطِعَتْ وَلَمْ أَكْتُبِ الحَدِيثَ[٢].

وَقَالَتْ أُمُّ الدَّرْدَاءِ[٣] لِرَجُلٍ: هَلْ عَمِلْتَ بِمَا عَلِمْتَ؟ **قَالَ**: لا. **قَالَتْ**: فَلِمَ تَسْتَكْثِرُ مِنْ حُجَّةِ اللهِ عَلَيْكَ؟!

وَقَالَ **أَبُو الدَّرْدَاءِ**: وَيْلٌ لِمَنْ لَمْ يَعْلَمْ وَلَمْ يَعْمَلْ مَرَّةً، وَوَيْلٌ لِمَنْ عَلِمَ وَلَمْ يَعْمَلْ سَبْعِينَ مَرَّةً.

وَقَالَ الفُضَيْلُ: يُغْفَرُ لِلْجَاهِلِ سَبْعُونَ ذَنْبًا قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لِلْعَالِمِ ذَنْبٌ وَاحِدٌ، فَمَا يَبْلُغُ مِنَ الكُلِّ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

وَجَاءَ سُفْيَانُ إِلَىٰ رَابِعَةَ، فَجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهَا، يَنْتَفِعُ بِكَلَامِهَا.

فَدَلَّ العُلَمَاءَ العِلْمُ عَلَىٰ أَنَّ المَقْصُودَ مِنْهُ العَمَلُ بِهِ، وَأَنَّهُ آلَةٌ، فَانْكَسَرُوا،

---

(١) معروف بن فيروز الكرخي، أبو محفوظ، أحد أعلام الزهاد والعباد، ولد في الكرخ في بغداد، ونشأ بها، وتوفي ببغداد سنة (٢٠٠هـ).

(٢) قال المؤلف: لأنه كان يكتب عن الضعفاء والمتروكين.

(٣) هجيمة بنت حيي الأوصابية الحميرية، تابعية جليلة، وفقيهة عابدة، توفيت سنة (٨١هـ).

وَاعْتَرَفُوا بِالتَّقْصِيرِ، فَحَصَلَ الكُلُّ عَلىٰ الاعْتِرَافِ وَالذُّلِّ، فَاسْتَخْرَجَتِ المَعْرِفَةُ مِنْهُمْ حَقِيقَةَ العُبُودِيَّةِ بِاعْتِرَافِهِمْ؛ فَذٰلِكَ هُوَ المَقْصُودُ مِنَ التَّكْلِيفِ.

٢٦ - فصل: محبة الخالق توجب قلقًا وشوقًا

١١٢ ـ **تَأَمَّلْتُ** قَوْلَهُ تَعَالىٰ: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]؛ فَإِذَا النَّفْسُ تَأْبَىٰ إِثْبَاتَ مَحَبَّةٍ لِلْخَالِقِ تُوجِبُ قلقًا [وشوقًا]، وَقَالَتْ: مَحَبَّتُهُ طَاعَتُهُ، فَتَدَبَّرْتُ ذٰلِكَ؛ فَإِذَا بِهَا قَدْ جَهِلَتْ ذٰلِكَ لِغَلَبَةِ الحِسِّ.

١١٣ ـ وَبَيَانُ هٰذَا: أَنَّ مَحَبَّةَ الحِسِّ لا تتعدَّىٰ الصُّوَرَ الذَّاتِيَّةَ، وَمَحَبَّةَ العِلْمِ وَالْعَمَلِ تَرَىٰ الصُّوَرَ المَعْنَوِيَّةَ فَتُحِبُّهَا، فَإِنَّا نَرَىٰ خَلْقًا يُحِبُّونَ أبا بَكْرٍ رضي الله عنه، وَخَلْقًا يُحِبُّونَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه، وَقَوْمًا يَتَعَصَّبُونَ لِأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلَ، وَقَوْمًا لِلأَشْعَرِيِّ[1]، فَيَقْتَتِلُونَ، وَيَبْذِلُونَ النُّفُوسَ فِي ذٰلِكَ، وَلَيْسُوا مِمَّنْ رَأَىٰ صُوَرَ القَوْمِ، وَلا صُوَرُ القَوْمِ تُوجِبُ المَحَبَّةَ، ولٰكِنْ لَمّا تَصَوَّرتْ لَهُمُ المَعَانِي، فَدَلَّتْهُمْ عَلَىٰ كَمَالِ القَوْمِ فِي العُلُومِ؛ وَقَعَ الحُبُّ لِتِلْكَ الصُّوَرِ، الّتِي شُوهِدَتْ بِأَعْيُنِ البَصَائِرِ، فَكَيْفَ بِمَنْ صَنَعَ[2] تِلْكَ الصّوَرَ المَعْنَوِيَّةَ وَبَذَلَهَا؟!

١١٤ ـ وَكَيْفَ لا أُحِبُّ مَنْ وَهَبَ لِي مَلْذُوذَاتِ حِسِّي، وَعَرَّفَنِي مَلْذُوذَاتِ عِلْمِي؟! فَإِنَّ الْتِذَاذِي بِالْعِلْمِ؛ وَإِدْرَاكِ العُلُومِ أَوْلَىٰ مِنْ جَمِيعِ اللَّذَّاتِ الحِسِّيَّةِ؛ فَهُوَ الَّذِي عَلَّمَنِي، وَخَلَقَ لِي إِدْرَاكًا، وَهَدَانِي إِلَىٰ مَا أَدْرَكْتُهُ.

١١٥ ـ ثُمَّ إنّه يَتَجَلَّىٰ لِي فِي كُلِّ لَحْظَةٍ فِي مَخْلُوقٍ جَدِيدٍ، أَرَاهُ فِيهِ بِإِتْقَانِ ذٰلِكَ الصُّنْعِ، وَحُسْنِ ذٰلِكَ المَصْنُوعِ. فَكُلُّ مَحْبُوبَاتِي مِنْهُ وَعَنْهُ وَبِهِ، الحِسّيةِ والمَعْنَوِيةِ، وَتسهيلُ سُبُلِ الإِدْرَاكِ بِهِ، والمُدْرَكَاتُ مِنْهُ، وألَذُّ مِنْ كُلِّ لَذَّةٍ عِرْفَانِي لَهُ؛ فَلَوْلَا تَعْلِيمُهُ؛ مَا عَرَفْتُهُ.

---

(١) أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (٢٦٠ ـ ٣٢٤هـ)، من الأئمة المتكلمين المجتهدين، كان معتزليًا، ثم ترك الاعتزال، ورجع إلى ما عليه أهل السنة والجماعة ينافح عن السنة ببيان قاطع وحجة دامغة، ووافق الإمام أحمد في معتقده كما بين ذلك في آخر كتبه (الإبانة عن أصول الديانة).

(٢) في الأصل: ضيع، وهو تصحيف.

١١٦ - وَكَيْفَ لا أُحِبُّ مَنْ أَنَا بِهِ، وَبَقَائِي مِنْهُ، وَتَدْبِيري بِيَدِهِ، وَرُجُوعِي إِلَيْهِ، وَكُلُّ مُسْتَحْسَنٍ مَحْبُوبٍ هُوَ صَنَعَهُ، وَحَسَّنَهُ، وَعَطَفَ النُّفُوسَ إِلَيْهِ؟!

١١٧ - فَكَذلِكَ الكَامِلُ القُدْرَةِ أَحْسَنُ مِنَ المَقْدُورِ، وَالْعَجِيبُ الصَّنْعَةِ أَكْمَلُ مِنَ المَصْنُوعِ، وَمَعْنَىٰ الإِدْرَاكِ أَحْلَىٰ عِرْفانًا مِنَ المُدْرَكِ.

١١٨ - وَلَوْ أَنَّنَا رَأَيْنَا نَقْشًا عَجِيبًا؛ لاسْتَغْرَقَنَا تَعْظِيمُ النَّقَّاشِ، وَتَهْوِيلُ شَأْنِهِ، وَظَرِيفُ حِكْمَتِهِ عَنْ حُبِّ المَنْقُوشِ، وَهٰذَا مِمَّا تَتَرَقَّىٰ إِلَيْهِ الأَفْكَارُ الصَّافِيَةُ، إِذَا خَرَقَ نَظَرُهَا الحِسِّيَّاتِ، وَنَفَذَ إِلَىٰ مَا وَرَاءَهَا؛ فَحِينئِذٍ تَقَعُ مَحَبَّةُ الخَالِقِ ضَرُورَةً.

١١٩ - وَعَلَىٰ قَدْرِ رُؤْيَةِ الصَّانِعِ فِي المَصْنُوعِ يَقَعُ الحُبُّ لَهُ: فَإِنْ قَوِيَ؛ أَوْجَبَ قَلَقًا وَشَوْقًا، وَإِنْ مَالَ بِالْعَارِفِ إِلَىٰ مَقَامِ الهَيْبَةِ؛ أَوْجَبَ خَوْفًا، وَإِنِ انْحَرَفَ بِهِ إِلَىٰ تَلَمُّحِ الكَرَمِ؛ أَوْجَبَ رَجَاءً قويًّا ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠].

٢٧ - فصل: قصور العقل عن درك جميع المطلوب

١٢٠ - **تأَمَّلْت** حَالًا عَجِيبَةً، وَهِيَ أَنَّ الله ﷻ قد بَنَىٰ هٰذِهِ الأَجْسَامَ مُتْقَنَةً عَلَىٰ قَانُونِ الحِكْمَةِ، فَدَلَّ بِذَلِكَ المَصْنُوعِ عَلَىٰ كَمَالِ قُدْرَتِهِ، وَلَطِيفِ حِكْمَتِهِ.

ثُمَّ عَادَ فَنَقَضَهَا، فَتَحَيَّرَتِ العُقُولُ بَعْدَ إِذْعَانِهَا لَهُ بِالْحِكْمَةِ فِي سِرِّ ذٰلِكَ الفِعْلِ؟! فَأُعْلِمَتْ أَنَّهَا سَتُعَادُ لِلمَعَادِ، وَأَنَّ هٰذِهِ البُنْيَةَ لَمْ تُخْلَقْ إِلَّا لِتَجوزَ في مَجَازِ المَعْرِفَةِ، وَتَتَّجِرَ فِي مَوْسِمِ المُعَامَلَةِ. فَسَكَنَتِ العُقُولُ لِذٰلِكَ.

١٢١ - ثُمَّ رَأَيْتُ أَشْيَاءَ مِنْ هٰذَا الجِنْسِ أَظْرَفَ مِنْهُ: مِثْل اخْتِرَام شَابٍّ ما بَلَغَ بَعْضَ المَقْصُودِ بِنْيَانُهُ! وَأَعْجَبُ مِنْ ذٰلِكَ أَخْذُ طِفْلٍ مِنْ أَكُفِّ أَبَوَيْهِ؛ يَتَمَلْمَلانِ[1]، وَلا يَظْهَرُ سِرُّ سَلْبِهِ، وَاللهُ الغَنِيُّ عَنْ أَخْذِهِ، وَهُمَا أَشَدُّ الخَلْقِ فَقْرًا إِلَىٰ بَقَائِهِ! وَأَظْرَفُ مِنْهُ إِبْقَاءُ هَرِمٍ، لا يَدْرِي مَعْنَىٰ الْبَقَاءِ، وَلَيْسَ لَهُ فِيهِ إِلَّا مُجَرَّدُ أَذًى! وَمِنْ هٰذَا الجِنْسِ تَقْتِيرُ الرِّزْقِ عَلَىٰ المُؤْمِنِ الحَكِيمِ، وَتَوْسِعَتُهُ عَلَىٰ الكَافِرِ الأَحْمَقِ. وَفِي نَظَائِرَ لِهٰذِهِ المَذْكُورَاتِ يَتَحَيَّرُ العَقْلُ فِي تَعْلِيلِهَا فَيَبْقَىٰ مَبْهُوتًا.

---

(١) **يتململان**: يتقلبان من الغم والحزن.

فَلَمْ أَزَلْ أَتَلَمَّحُ جُمْلَةَ التَّكَالِيفِ؛ فَإِذَا عَجَزَتْ قُوىٰ العَقْلِ عَنْ الاطِّلاعِ علىٰ حِكْمَةِ ذٰلِكَ، وَقَدْ ثَبَتَ لَهَا حِكْمَةُ الفَاعِلِ؛ عَلِمَتْ قُصُورَهَا عَنْ دَرْكِ جَمِيعِ المَطْلُوبِ، فَأَذْعَنَتْ مُقِرَّةً بِالْعَجْزِ، وَبِذٰلِكَ تُؤَدِّي مَفْرُوضَ تَكْلِيفِهَا.

١٢٢ ـ **ولَوْ قِيلَ لِلْعقْلِ**: قَدْ ثَبَتَ عِنْدَكَ حِكْمَةُ الخَالِقِ بِمَا بَنَىٰ؛ أَفَيَجُوزُ أَنْ يَنْقَدِحَ[1] فِي حِكْمَتِهِ أَنَّهُ نَقَضَ؟ لَقَالَ: لا، لِأَنِّي عَرَفْتُ بِالبُرْهَانِ أَنَّهُ حَكِيمٌ، وَأَنَا أَعْجَزُ عَنْ إِدْرَاكِ عِلَلِ حِكْمَتِهِ، فَأُسَلِّمُ عَلَىٰ رَغْمِي، مُقِرًّا بِعَجْزِي[2].

٢٨ - فصل: فوائد النكاح

١٢٣ ـ **تَأَمَّلْتُ** فِي فَوَائِدِ النِّكَاحِ وَمَعَانِيْهِ وَمَوْضُوعِهِ، فَرَأَيْتُ أَنَّ الأَصْلَ الأَكْبَرَ فِي وَضْعِهِ وُجُودُ النَّسْلِ؛ لأَنَّ هٰذَا الحَيَوَانَ لا يَزَالُ يَتَحَلَّلُ، ثُمَّ يَخْلُفُ المُتَحَلِّلَ الغِذَاءُ، ثُمَّ يَتَحَلَّلُ مِنَ الأَجْزَاءِ الأَصْلِيَّةِ مَا لا يَخْلُفُه شَيْءٌ؛ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ بدٌّ مِنْ فنائِهِ، وَكَانَ المُرَادُ امْتِدَادَ أَزْمَانِ الدُّنيا؛ جُعِلَ النسلُ خَلَفًا عَنِ الأَصْلِ.

١٢٤ ـ وَلَمَّا كَانَتْ صُورَةُ النِّكَاحِ تَأْبَاهَا النُّفُوسُ الشَّرِيفَةُ؛ مِنْ كَشْفِ العَوْرَةِ، وَمُلَاقَاةِ مَا لا يُسْتَحْسَنُ لِنَفْسِهِ؛ جُعِلَتِ الشَّهْوَةُ تَحُثُّ عَلَيْهِ؛ لِيَحْصُلَ المَقْصُودُ.

١٢٥ ـ ثُمَّ رَأَيْتُ هٰذا المَقْصُودَ الأَصْلِيَّ يَتْبَعُهُ شَيْءٌ آخَرُ، وَهُوَ اسْتِفْرَاغُ هٰذَا الماءِ، الذي يُؤْذِي دَوَامُ احْتِقَانِهِ؛ فإنَّ الْمَنِيَّ يَنْفَصِلُ مِنَ الهَضْمِ الرَّابِعِ؛ فَهُوَ مِنْ أَصْفَىٰ جَوْهِرِ الغِذَاءِ وَأَجْوَدِهِ، ثُمَّ يَجْتَمِعُ؛ فَهُوَ أَحَدُ الذَّخَائِرِ لِلنَّفْسِ، فَإِنَّهَا تَدَّخِرُ ـ لِبَقَائِهَا وقوَّتِها ـ الدَّمَ، ثُمَّ المَنِيَّ، ثُمَّ تَدَّخِرُ التُّفْلَ[3]، الذي هُوَ مِنْ أَعْمِدَةِ البَدَنِ؛ كَأَنَّهُ لِخَوْفِ عَدَمِ غَيْرِهِ؛ فَإِذَا زَادَ اجْتِمَاعُ المَنِيِّ؛ أَقْلَقَ عَلَىٰ نَحْوِ إِقْلاقِ البَوْلِ لِلْحَاقِنِ؛ إِلَّا أَنَّ إِقْلَاقَهُ مِنْ حَيْثُ المَعْنَىٰ أَكْثَرُ مِنْ إقلاقِ البَوْلِ مِنْ حَيْثُ الصُّورَةُ، فَتُوجِبُ كَثْرَةُ اجْتِمَاعِهِ، وَطُولُ احْتِبَاسِهِ أمراضًا صَعْبَةً؛ لأَنَّه يَتَرَقَّىٰ مِنْ بُخَارِهِ إِلىٰ الدِّمَاغِ فَيُؤْذِي،

---

(١) الخطاب للعقل فينبغي أن تكون الكلمة: تقدح.

(٢) انظر: رسالة (الاحتجاج بالقدر) لابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٣) **التفل**: اللعاب.